الجمعية الكويتية
لتقدم الطفولة العربية
سلسلة الدراسات العلمية
الموسمية المتخصصة

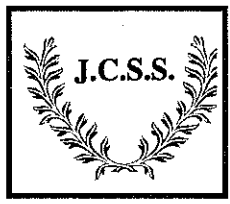

J.C.S.S.
مركز جنين للدراسات الاستراتيجية

أطفال بلا طفولة

أطفال فلسطين في زمن الحرب

مشروع مبارك العبدالله المبارك الصباح
للدراسات العلمية الموسمية المتخصصة
تخرج هذه السلسلة بإشراف لجنة مكونة
من الذوات التالية أسماؤهم

د. حسن الإبراهيم (الرئيس)

د. رجاء أبو علام
د. محمد جواد رضا
د. بدر العمر
د. يعقوب الحجي

تأليف الباحثة
شارلوت ستانفورث

ترجمة وإعداد :
مركز جنين للدراسات الاستراتيجية

رقم الايداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
(٢٠٠٤/٣/٥٠٤)

٣٠٣,٤٨٥٠٩٥٦٤
ستانفورث، شارلوت
أطفال في زمن الحرب : أطفال فلسطين بلا طفولة / تاليف شارلوت ستانفورث؛ ترجمة وإعداد مركز جنين للدراسات الإستراتيجية. _ عمان : مركز جنين للدراسات الإستراتيجية، ٢٠٠٤.
(١٠٤) ص
ر.إ. (٢٠٠٤/٣/٥٠٤)
المواصفات:/علم الإجتماع// الأطفال// فلسطين// الحرب// الإحتلال الإسرائيلي لفلسطين// تاريخ فلسطين/

* تم إعداد بيانات الفهرسة والتصنيف الأولية من قبل دائرة المكتبة الوطنية

* رقم الإجازة المتسلسل لدى دائرة المطبوعات والنشر ٢٣٦٥/١١/٢٠٠٣
* رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة والوثائق الوطنية ٥٠٤/٣/٢٠٠٤

إصدارات
مركز جنين للدراسات الاستراتيجية
عمان ـ تلفون : ٥٨٢٠٢٦٤

مقدمة

هذا الكتاب، الذي تعاقد مركزنا مع مؤلفته شارلوت ستانفورث على ترجمته ونشره باللغة العربية، هو في الأصل رسالة ماجستير لهذه الفتاة البريطانية في الجامعة الأمريكية ببودابست، وقد جاءت لتعيش طويلاً في الأراضي الفلسطينية من أجل أن يكون بحثها ميدانياً في الدرجة الأولى.

هذه الدراسة الهامة والحديثة والعميقة، تتركز أساساً حول تأثير الاحتلال وتأثير العنف الإسرائيلي الوحشي في زمن "الانتفاضة" الأولى والثانية على أطفال فلسطين، معتمدة على تحليل رسومات هؤلاء الأطفال من خلال مقارنتها مع رسوم أطفال هنغاريين، وذلك من أجل تحديد أوجه الشبه وأوجه الاختلاف في مواقف وأفكار هؤلاء الأطفال. الهدف من البحث وهو بحث اجتماعي في غاية العمق والتدقيق، تلخيص الأدبيات المتوفرة حول المؤثرات السيكولوجية للانتفاضة على أطفال فلسطين، وتفحص رسوماتهم لمعرفة كيف يمكن استخدام الرسم لعلاج مشكلاتهم، وكذلك تسليط الضوء على حاجاتهم، في محاولة لإيجاد طرق جديدة لتطوير مشروعات إنسانية لمساعدة هؤلاء الأطفال واستيعابهم، لاعتقاد الباحثة أن المؤثرات النفسية للحرب على الأطفال لم تنل الاهتمام الكافي.

الكتاب موثق بشكل علمي، ويعتمد على عدد كبير من الدراسات الهامة في هذا المجال، لكتّاب عرب وأجانب، وخبراء في علم الاجتماع وعلم الاجتماع النفسي. وقد راجعه أساتذة متخصصون في علم النفس، وأخص بالذكر الدكتور فارس حلمي رئيس قسم علم النفس في الجامعة الأردنية.

توفيق أبو بكر

مدير عام مركز جنين

للدراسات الإستراتيجية

أطفال بلا طفولة

الفصل الأول

الأطفال الفلسطينيون : ضحايا العنف

****

الأطفال هم الضحية الرئيسية للمعاناة والعنف. وقد أثبتت الأبحاث أن العيش في مناطق الصراع له تأثير سلبي على الأطفال، ومع ذلك فإنهم لم يحظوا بالإهتمام الكافي إلا في السنوات الأخيرة- كما تقول الباحثة شارلوت ستانفورث التي أعدت هذه الدراسة عن أطفال فلسطين لتقصي المؤثرات السيكولوجية للإنتفاضة من خلال الرسوم، إعتقاداً منها بأن الرسم مساعد علاجي للمشكلات النفسية. ترى الباحثة أيضاً أن فلسطين تعتبر حالياً مختبراً حياتياً يمكن من خلاله دراسة مشاركة الأطفال في الحرب.

وكانت الباحثة "ستانفورث"، على إتصال مع الأستاذ الجامعي الفلسطيني أحمد بكر "الذي أعد مجموعة من الدراسات حول أثر اختلاف الجنس ومكان الاقامة على احترام الذات عند الأطفال الفلسطينيين، تم نشرها في مجلة علم النفس عام ١٩٩٢" والبروفيسور رائيجا بوناماكي "أستاذ جامعي فنلندي، أعد دراسات حول تأثير الانتفاضة على الوضع الصحي للأطفال في فلسطين وإسرائيل، وتأثير العنف السياسي على الأطفال كعامل حاسم على الخوف عندهم" اللذين كانا في مقدمة الباحثين في هذا المجال، ولبوناماكي مجموعة أبحاث تم نشرها في السنوات (١٩٨٧، ١٩٩٥، ١٩٩٩، ٢٠٠٠) . وتشير الباحثة "ستانفورث" إلى أن وسائل الإعلام عمقت من حقيقة مشاركة الأطفال الفلسطينيين في الحرب، وقد توصلت الأبحاث إلى نتائج متعددة ومختلفة في هذا المجال، إذ يقول بعض الباحثين أن النتائج سلبية بمجملها حيث أنها تمنع النمو و تُسبّب سلسلة من

المشكلات العاطفية، لكن آخرين يعتقدون عكس ذلك، ويرون بأن المشاركة الفاعلة في النضال الوطني يمكن أن تؤدي إلى نتائج إيجابية مثل تقوية روح الإيثار والتعاطف مع الآخرين والعمل في مجال خدمة ضحايا العنف.

ويمكن أن تكون بعض تجارب الحروب ذات طبيعة وقائية، تسرّع من عملية النضوج ومن الفهم المبكر للأيديولوجيات السياسية والمفاهيم العامة، مثل العدالة والحرية، كما تقوي روابط الهوية الوطنية. ويعتقد بعض الباحثين أن الأطفال الذين ينشأون في مناطق العنف السياسي قد يتخذون مواقف سلبية من الحرب، وهذا بحد ذاته عامل إيجابي .

وغالبية الأطفال الذين يعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة تعرضوا ويتعرضون لحوادث أو هزات عاطفية تعتبر غير إعتيادية بالقياس إلى ما يسمى "الطفل الطبيعي" الذي يعيش في الغرب. والذين لم يتعرضوا للأحداث بشكل مباشر لم يسلموا من التأثيرات بحكم الظروف المحيطة بهم من حظر تجوال طويل، وإغلاق مدارس متكرر، ووجود حواجز التفتيش، ورؤية الجنود الإسرائيليين، المدججين بالسلاح، والعيش في مخيمات اللاجئين بما فيها من حرمان وإكتظاظ سكاني و ضيق عيش.

ويجمع كثير من الباحثين على أن أكبر عامل مؤثر بالنسبة للأطفال، هو وجود الوالدين، فقد تبين من تجربة الحرب العالمية الثانية، أن الأطفال الذين إنتقلوا إلى الريف للنجاة من عمليات قصف مدينة لندن، كانوا في حال أسوأ من الذين بقوا فيها، ويمكن تفسير هذه الظاهرة جزئياً بحقيقة أن فصل الطفل عن والديه كان سبباً للمعاناة والقلق أكثر من حالة الحرب، التي كان معظم الأطفال ينظرون إليها، كحادث أو مغامرة إذا كانوا في ظل معيل يتعايش مع الوضع بكفاءة. وفي دراسة نشرها الباحث الأمريكي "كوستلني غابريانو" عام ١٩٩١ حول "ما الذي يمكن أن يخبرنا به الأطفال الذين يعيشون تحت العنف"، تجلت أهمية تأثير الوالدين، وبخاصة الأم من حيث تصرفها وحالتها العاطفية، على الوضع النفسي للأطفال.

ومن المعروف أن الأطفال كائنات تنمو بسرعة وتواجه بإستمرار تحديات نمو جديدة، وهذه التحديات تسبب القلق والتناقض حتى للأطفال الذين يعيشون في بيئات طبيعية وصحية. يقول تقرير لمنظمة الصحة العالمية (١٩٩٦) أن الأطفال الذين يعيشون في بيئة تحمل معها العديد من التحديات الخارجية أو الإضطرابات والصراعات الداخلية، هم أكثر عرضة لمتاعب عقلية متعددة. وكما هو معروف في هذا العصر، فإن ردة فعل الأطفال تجاه النكبات قد لا تكون مكشوفة مع وعيهم لوجودها. وقد توجد عدة أعراض تشير إلى قدرة الطفل على التعايش مع شيء لا يخطر ببال غالبية البالغين. ويجب على المختصين أن يستوعبوا هذه النقطة حتى لا يسيئوا تشخيص الأعراض، فهدوء الطفل وتصرفه على غير المعتاد، لا يعني أنه غير قلق، بل قد يعني العكس تماماً، كأن يكون متقوقعاً ومتراجعاً إلى مرحلة سابقة، أو يائساً إلى درجة كبيرة. إن إستمرار العيش في بيئة تعرض الطفل للمعاناة، يؤدي في النهاية إلى تشكيل شخصيته كمراهق وبالغ، وتؤثر في تشكيل نظرته إلى العالم. فالضغط المتراكم الذي يتعرض له الأطفال، يعني بالنتيجة أنهم محرومون من حرية الطفولة، وأنهم مجبرون على العيش في خوف وإتكالية وتسريع للنضوج، ذلك أن عدم ممارسة الأشياء الطفولية الإعتيادية، يمكن أن يؤدي إلى إختصار الطفولة، والتسريع في دخول مرحلة البلوغ.

تهدف الباحثة من دراستها إلى تسليط الضوء على حاجات الأطفال الفلسطينيين الذين يعيشون وطأة المعاناة، من أجل فتح آفاق جديدة في معالجة مشكلاتهم. وترتكز الباحثة في دراستها على إستكشاف كيفية تأثر الطفل على المستوى الكوني من خلال العيش في أجواء الحرب، إستناداً على فرضية أن الهوية الإجتماعية والثقافية تتأثر بشكل كبير، مثلما هو الحال مع العوامل العاطفية والمعرفية. والإفتراض المنطقي يقول بأن الطفل الفلسطيني مجبر على الدخول في مرحلة البلوغ بأسرع مما هو الحال عند الطفل العادي، وأنه يتمتع بوعي أكبر تجاه مفاهيم البالغين المتعلقة بالحرية والموت والوطنية، ويرجع السبب إلى التجارب التي يواجهها الطفل، والمحيط الإجتماعي العام، فمن خلال

تاريخ وثقافة المنطقة يتعلم الأطفال الشعر، ويستمعون إلى الأغاني التي تصف وضعهم، ولذلك فهم منفتحون على التاريخ الحقيقي لوطنهم وواقعهم منذ بواكير حياتهم، مما يؤدي إلى تشكيل هوية جمعية بين الفلسطينيين.

وقد قامت الباحثة بوضع تقييماتها لمؤثرات الإنتفاضة السيكولوجية على الأطفال الفلسطينيين، من خلال مقارنة رسومهم عن الحرب برسوم أطفال هنغاريين، وهنغاريا منطقة تتسم بالهدوء السياسي وغياب العنف، فقد أشارت التباينات بين المجموعتين إلى أوجه مرعبة لتطور أطفال فلسطين بشكل عام، كما أوضحت إمكانية إستخدامها كوسيلة علاجية، وهذا يمكن أن يتم مع أوجه الفن الأخرى. وبالنتيجة فإن الأطفال الفلسطينيين "الرسامين" يتمتعون بوعي يفوق ما لدى نظرائهم الأكبر سناً في المناطق الهادئة الخالية من الحروب.

وربما يكون من غير المناسب القول، بأن هؤلاء الأطفال يملكون وعيا للأحداث، صحيح أنهم يملكون رؤية لها، بدليل أنهم رسموها، إلا أنهم ربما لا يستوعبونها، وهذا قد يكون أصل المشكلة لأطفال يعيشون، لسوء الحظ، في مناطق محتلة.

ما هو التأثير النفسي للإنتفاضة على الأطفال الفلسطينيين ؟

الأطفال كائنات بشرية مرنة، يمكن لها تحمل الكثير إذا ما كانت مع الكبار في نفس الظروف. وحتى عمر معين، لا يستطيع الأطفال فهم ما يدور حولهم بشكل كامل، وهذا يعني أنهم لا يستوعبون ملابسات الوضع، وبالتالي لا يستطيعون توقع النتائج المدمرة له، وردة فعل الأطفال تنطلق من قاعدة الوالدين، فإذا تصرفت الأم بشكل هادئ، فإن الطمأنينة تعم الأطفال، ويثقون بها ويشعرون بالحماية، أما إذا كانت المعاناة كبيرة لدرجة لا تستطيع الأم تحملها، فإن ذلك ينتقل إلى الأطفال ويزداد خوفهم.

ويعتقد الباحث "غابريانو" الذي نشر دراسة عام (١٩٩١) أنه عندما يتمكن الوالدان من الإبقاء على إرتباط قوي مع الأطفال، ويمارسان دوراً إيجابياً

ويوفران المأوى والطعام والرعاية الصحية، فإن النتيجة تكون تحمّل الأطفال للوضع، رغم ما يترتب على ذلك من ضغوطات نفسية ومعاشية على الآباء.

ووفق بحث بوناماكي (١٩٨٧) فإن الإعتقاد الكلاسيكي بأن الأم تقوم بدور العازل بين الطفل والمعاناة النفسية، يأخذ أبعاداً جديدة عندما نعرف بأن الأم تتحمل ضغوطات كثيرة وأعباء مضاعفة. والتوجه نحو التركيز على أهمية الأم كمصدر رئيسي لسعادة الطفل يشوه فهمنا للتحولات السيكولوجية الملازمة لأي شعب معرض للعنف السياسي، ذلك أن نجاح النساء في الحفاظ على تماسكهن النفسي يرتبط بالتزامهن السياسي والأيديولوجي بالنضال الوطني.

والأطفال الفلسطينيون على دراية بمهمتهم، فهم لا يخرجون إلى الشوارع محملين بالحجارة والزجاجات جراء الشعور بالملل أو لإزعاج الجنود الإسرائيليين فقط، وإنما يفعلون ذلك إنطلاقاً من قناعة عامة مفادها أنه لم يعد بمقدورهم تحمل الظلم والمعاناة، ولذلك، فإن الخروج إلى الشوارع هو وسيلة من وسائل الإحتجاج للحصول على الإعتراف بهم، والأطفال يمتلكون قوة الثوريين، ويشعرون بأنهم جزء من مجهود (إفعل شيئاً) الذي يعبرون عنه في المظاهرات والتجمعات. وملخص الرسالة هو :" سوف لن نكتفي بالتفرج بينما نعاني من الظلم والإذلال". والفرق بين أطفال فلسطين وأطفال مناطق الصراعات الأخرى، هو أنهم يحاربون في معركة قومية لتحرير وطنهم. ولكن السؤال الذي يطرح نفسه هو : لماذا يندفع هؤلاء الأطفال إلى الشوارع ويتحملون المخاطر، وهم لا يملكون وسائل للقتال في مواجهة الجيش الإسرائيلي المدجج بالأسلحة المتطورة. فكيف إذن قرر هؤلاء الأطفال التخلص من الشعور بالخوف؟ ربما تكون الصور التي نراها على شاشات التلفزيون مضللة، ذلك أن طفل السبع سنوات يظل طفل سبع سنوات بغض النظر عن مكان إقامته أو فعله، ومن الممكن أن يخاف هؤلاء الأطفال من الموت والإصابة، لكن الخوف الأكبر الذي يشعر به هؤلاء هو أنهم يعيشون ليوم آخر وتواجههم نظرة الإحباط في عيون والديهم. وقول بعض هؤلاء الأطفال أنهم يفضلون الموت على إستمرارية

العيش في هذه الظروف المفروضة عليهم، وبحسب ما قال أحد الأطفال:" فإما حياة تسر الصديق وإما ممات يغيظ العدا".

تحاول هذه الدراسة إستكشاف طريقة تفكير هؤلاء الأطفال، والدوافع الكامنة وراء إندفاعاتهم للمواجهة، بمعنى رؤية العالم من خلال عيني طفل فلسطيني، والرسوم هي أكثر طريقة بريئة وصادقة لتعبير الأطفال عن أنفسهم.

تتناول الباحثة دراسات سابقة عن مؤثرات الحرب على الأطفال، وكذلك الأبحاث التي جرت على الأطفال الفلسطينيين خلال الثلاثين عاماً الماضية. وإذا أخذنا في الإعتبار حقيقة أن كثيراً من هؤلاء الأطفال سوف يعيشون هذا الوضع طوال حياتهم، فإنّ ما يمرّون به من تجارب، يصبح جزءاً من حياتهم اليومية الإعتيادية. قد لا تتحول هذه التجربة إلى مشكلة نفسية، ومن الأفضل وصفها بالوضع المزمن من الحرمان والمعاناة الجماعية. ويأتي في مقدمة هذا الوضع الإنفجار المنتظم للعنف، ومن هنا تأتي إحتمالات إكتساب المشكلات النفسية. وهي للأسف مرشحة للتراكم، ذلك أن الأطفال الفلسطينيين يعيشون في خطر دائم، مما يتطلب الحاجة إلى تأقلم عمري مغاير لهذه التجربة المرتبطة بالخطر المحدق، وغالباً ما تحتاج الأخطار الحادة إلى تأقلم ظرفي من قبل الأطفال الطبيعيين، وكثيراً ما تكون تطمينات الوالدين، مثل عبارات (لا تقلق، سوف تكون الأمور على ما يرام) كافية لتمكين الطفل من إستيعاب الصدمة في فهم الوضع. وفي الجانب الآخر، فإن الخطر الدائم يستدعي إحتياطات، تشمل التعامل مع التفاصيل ومع أعراض مرحلة ما بعد الصدمة، مما يشكل تعبيراً متواصلاً في الشخصية وفي طريقة التصرف، وتفسيراً أيديولوجياً دقيقاً للعالم، لتسهيل فهم الخطر المتواصل.

والوسيلة العلاجية المقترحة لهذا النوع من الأوضاع، هي البناء على علاقات الطفل الأساسية الموجودة، لخلق واقع إيجابي جديد، يمكنه من تخطي الإستنتاجات "الطبيعية" التي يمكن أن يتوصل إليها طفل مضطرب نفسياً، حول قيمتها ومصداقية الكبار ومؤسساتهم، والمواقف المأمونة تجاه العالم. هناك

عدة إحتمالات للقلق والإضطراب النفسي من تكرار مشاهد العنف الحقيقية، ومشاهدة القتل والإصابات، ويعقبها أحداث أصبحت عادية كالضرب والتهديد والإعتداء على أحد أفراد العائلة (ومن أشدها إيلاماً رؤية ضرب الأب وإذلاله). تشير تقارير برنامج غزة للصحة العقلية عن الفترة من ٢٨ أيلول ٢٠٠٠ إلى ٢١ نيسان ٢٠٠٢ إلى أن عدد الفلسطينيين الذين استشهدوا في الضفة الغربية وغزة والقدس الشرقية بلغ ١٤٩١ شخصاً منهم ٤٠٠ طفل، أما عدد الجرحى من الرصاص الحي والمطاطي وقنابل الغاز، فيقدر بحوالي ١٨٥٩٠ إصابة، بينما تم إقتلاع ١١٢٩٠٠ شجرة زيتون، وتجريف ٣٦٦٩ متر مربع من الأراضي الزراعية.

من الصعب وصف ما جرى لفلسطين بشكل دقيق، لأن ذلك يحتاج إلى مؤلفات ضخمة، ومهمة هذه الدراسة هي التركيز على دور الأطفال في هذا الصراع. إنّ وفاة طفل في العالم الغربي يعتبر حدثاً مأساوياً مخيفاً وخيانة للإنسانية، وربما يكون السبب أن الطفل في الغرب محمي من الحرب، وهو أول من يجري إبعاده وحمايته عند إقتراب الأخطار، لكن الوضع في فلسطين هو خلاف ذلك، فالناس أخذوا يتقبلون استشهاد الأطفال كحقيقة مسلم بها، مثل موت الكبار، حتى وصل الأمر حد تمني الأطفال للشهادة. والإسلام ينظر بإحترام للشهداء، وصورة إستشهاد الطفل محمد الدرة في ٣٠ أيلول ٢٠٠٠، تشكل جانباً مقلقاً من هذا الصراع، محمد الدرة طفل في الثانية عشرة من عمره، قتله الإسرائيليون حين كان يحتمي بظهر والده، وربما يرى الأطفال في ذلك موضوعا مثيراً للرعب فهم غير آمنين لأنهم أطفال، كما أن آباءهم لا يستطيعون حمايتهم.

وتتشابه تجارب الحروب حول العالم بالنسبة للناس الذين يعيشون في مناطق الصراع، حيث أنهم عرضة للإصابة أو مجبرون على تقبل موت أحد أفراد العائلة، أو فقدان صديق، والأسوأ من ذلك، أنهم مجبرون على العيش في خطر دائم، وبما أن هذا الوضع صعب بالنسبة للكبار، فكيف هو حال الأطفال الذين يحتاجون إلى الأمن والإستقرار أكثر من غيرهم. يقول الباحث الأمريكي

"أريكسون" في دراسة أعدها حول الأطفال الذين يعيشون في أجواء عنيفة وتم نشرها عام (١٩٧٦)، أن المشكلة الكبرى التي تواجه الأطفال والبالغين على حد سواء هي أن الخوف الذي يسيطر عليهم ليس إمتداداً لذكريات الماضي المخيف فقط، وإنما هو لوعيهم الحقيقي بأخطار الحاضر".

هناك عنصر آخر مهم مرتبط بالفلسطينيين، وهو إختلال القوة الحربية، فالأطفال يترعرعون على إحترام وطنهم من خلال الأشعار والأغاني، مما يخلق هوية قومية وإنتماءً يتعرضان للتهديد من الإحتلال، وروح الإنتماء القومية هذه، والإيمان بالكينونة الفلسطينية والإصرار على العودة إلى أرض الأجداد، هي التي جعلت شعب فلسطين وأطفالها يواصلون النضال طوال الخمسين عاماً الماضية، مع أن وسيلتهم الوحيدة في القتال هي الحجارة. وهي لا تجاري الدبابات والمدافع والطائرات والسفن الحربية الإسرائيلية. فما هي مشاعر الأطفال الفلسطينيين في الوضع الذي هم فيه؟ هل يشعرون بالمرارة وبكراهية العالم نتيجة للمظالم التي يتعرضون لها؟ هل يستسلمون، أم انهم يواصلون النضال من أجل ما يعتبرونه صواباً في وجه العجز والدمار، وهل يخلق ذلك لديهم شعوراً بالأمل، يدفعهم نحو الإستمرار ويبقيهم موحدين؟ وهل يشعرون بحساسية تجاه حاجات الآخرين بعد كل معاناتهم؟

إن التجارب التي يمر بها الأطفال الفلسطينيون كثيرة ومريرة، ومتعددة الوجوه، تقول دراسة لبوناماكي "حول الأطفال تحت تأثير العنف تم نشرها عام ١٩٨٧" أن ٣٠% من الأطفال الفلسطينيين من عينة الدراسة فقدوا قريباً من أقاربهم في الحرب، وأن ٣٧% لهم أقارب جرحى، أما نسبة الذين تم سجن فرد من عائلتهم فقد بلغت ٦٧% ، كما أن ٨٧% شاركوا لمرة واحدة على الأقل، في مواجهات عنيفة مع الجنود الإسرائيليين.

وكما أشرنا فإن رؤية الطفل لأبيه وهو يتعرض للضرب على أيدي الجنود الإسرائيليين لا تكون مؤلمة ومقلقة فقط، وإنما مذلة ومرعبة. فمن أين يستمد الطفل الإحساس بالحماية إذا كان الأب لا يستطيع حماية نفسه؟. وتعتبر الأم

صورة للحب والحنان، يجب إحترامها في كل الظروف، وعندما يشاهدها الطفل وهي تبكي وتستجدي الجنود كي لا يدمروا الأرض أو يقتحموا المنـــزل، فـــإن الأطفال، وبخاصة الذكور ، يحسون بالحاجة لحمايتها، ولكنهم في الوقت ذاتـــه، يشعرون بالإحباط والعجز، لعدم قدرتهم على فعل ذلك.

البعض يقول" إن الأطفال الفلسطينيين معتادون على ذلك، فالمواجهات هـــي سمة الحياة اليومية منذ وقت طويل"، ولكنني أختلف مع هذه المقولـــة- تقـــول الباحثة- وتضيف "بأنه لا يمكن لطفل أن يعتاد علـــى رؤيـــة هـــذه الفظاعـــات اليومية، إن أي بالغ يعيش هذه الأوضـــاع يمكـــن أن يعـــي أن العـــالم ملـــيء بالإحباطات والأحداث المخيفة، لكن الوضع بالنســـبة للطفـــل مختلـــف تمامـــاً، فالأطفال لا يمكنهم أن يدمنوا على المخاطر، ويصبحوا غير مبالين، لكن ذلك لا يعني قدرتهم على التفريق بين الخطر الحقيقي وغير الحقيقي. بمعنى أن الطفل يمكن أن يشعر بالخوف والعكس صحيح. ومن وجهة نظر سيكو- تحليلية فإنه يمكن تفسير ذلك بالإثارة العامة المتأتية من اللهو، في منطقة تقع بـــين قـــوى الحياة وقوى الموت. ويمكن الإستشهاد بأمثلة كثيرة لأناس يشـــعرون بمنتهـــى الحيوية، عندما يواجهون الأخطار بمنطق تحدي النفس، ويمكن أن يصبح ذلـــك بالنسبة لبعض الناس أسلوب حياة، ويمكن أن تصبح تجربة البحث عن الإثـــارة طاغية، لدرجة أنهم لا يجدون لذة في نشاطات أخرى أقل خطورة. إنّ العيش في خطر أمر مهم لفهم نمو الطفل، ويقول الباحث الأمريكي غابريانو في دراســـته المنشورة عام ١٩٩١ " والتي سبق الإشارة إليها " ان أغلب الأطفـــال يحبـــون الإثارة المرافقة لخطر معقول، كما يبحثون عنها فـــي لهـــوهم مثـــل (التســـلق والمراجيح) ويمكن أن يبحث بعض الأطفال عن الأخطار دون أن يعـــوا تمامـــاً عواقب ذلك عليهم، وعلى الآخرين، وهذه نقطة هامة يجب أخذها بعين الإعتبار عند دراسة مواجهة الأطفال الفلسطينيين لجيش الإحتلال الإسرائيلي، وقد يبحث بعض الأطفال عن الأخطار نتيجة لخلل عقلي، بينما قد يصاب آخرون بالصـــدمة عند أدنى شعور بالخطر، وأفترض بأن معظم الأطفال يقعون بـــين هـــذا وذاك. ومن الصعب جداً تحديد الأشخاص المضطربين عاطفياً في كل حالة على حـــدة،

وكذلك درجة هذا الإضطراب بسبب تداخل العوامل وإختلاف التجارب. ويمكن أن تجتمع عدة عوامل لتؤثر على طريقة رد فعل الطفل، إزاء حالة معينة. فعلى سبيل المثال، يختلف رد فعل الطفل الذي يجد أماً حانية متفهمة عن رد فعل الطفل الذي يعيش في بيئة غير صحية، ويتعرض لسوء المعاملة. إنّ عوامل تأثير البيئة المحيطة بالطفل، تلعب دوراً مهماً في التأثير على الطفل، فنظرية عالم النفس "برونفنبرنر" التي طرحها في دراسته المنشورة عام ١٩٨٦ عن سيكولوجية العائلة وأثرها على تطور الإنسان، تدور حول عوامل القوة والضعف التي يمكن أن تكون مانعة للإضطرابات والمشكلات النفسية أو العكس. فالوسط المباشر، بمن في ذلك العائلة، وكذلك المؤسسات المحلية والجو السياسي العام، لها دور في هذا الخصوص. ومما يساعد الطفل على التعامل مع الصدمات النفسية، أن يلقى الدعم من والدين متفهمين، وأن يحيط به أصدقاء مروا بنفس التجارب، وكذلك المحيط الإجتماعي القوي، كل هذه الأشياء يمكن أن تشكل وقاية له. وحتى عند أخذ النقاط الماضية بعين الإعتبار، فإنه بناء على الإستنتاج الوارد في الدراسة السابقة، فإن أغلب الأطفال الذين يعيشون في مناطق النزاعات العنيفة، يتأثرون دائماً بشكل سلبي عند حدوث النزاع، بينما يتأثر كل الأطفال بشكل أو بآخر في مناطق الصراع المتواصل، مثل فلسطين (دراسة الدكتور إياد السراج، وهو اخصائي نفسي فلسطيني، وعضو في برنامج الصحة العقلية في قطاع غزة أعد مجموعة من الدراسات حول الأطفال الفلسطينيين والعنف، وتأثير السلام على أطفال الحجارة) حيث يقول الدكتور السراج، "ان جيلاً من الأطفال ينشأ في غزة وفي أجواء العنف، يعاني من مشكلات نفسية حادة". وهو يخشى أن يؤدي ذلك إلى تهديد النسيج الإجتماعي الفلسطيني مستقبلاً.

لقد تم إجراء دراسات على الأطفال الذين يشاركون في الحرب أو يعانون منها في دول كثيرة، مثل جنوب أفريقيا وكرواتيا وكمبوديا وإيرلندا الشمالية. إلا أن هناك نقصاً في الدراسات المعمقة حول نفسية الأفراد، وبخاصة الأطفال- الذين خبروا ويلات الحرب أو شاركوا فيها- وفي دراسة أجراها أجوكوفيتش

"وهو باحث في علم النفس من يوغسلافيا أعد دراسة حول الأطفال اللاجئين في كرواتيا وأوضاعهم النفسية تم نشرها عام ١٩٩٣م" وجد أن تجربة اللجوء مليئة بالإضطرابات والقلق، إلا أن الأطفال الذين عاشوا في الملاجئ الجماعية كانوا عرضة لمخاطر عقلية أكثر من الذين عاشوا مع عائلات. وتوصل الباحثون في الدراسات التي أجروها في البلاد المذكورة إلى إستنتاج مفاده أن المخاطر التي يواجهها أطفال الحروب كثيرة، ويمكن أن تؤدي إلى تأثيرات ضارة على نمو هؤلاء الأطفال. ولهذا فهم ينصحون بإيجاد إستراتيجية لإعداد برامج مساعدة نفسية لضمان النمو الطبيعي لهؤلاء الأطفال.

أما فيما يتعلق بفلسطين، فإن كثيراً من الأطفال قد عاشوا كل حياتهم كلاجئين، حيث ولدوا في مخيمات اللاجئين، ولم يعرفوا إلاّ الحرمان والإحتلال. ومع أن بعض هؤلاء الأطفال لم ينتقلوا إلى دول أخرى كالأردن ولبنان وسوريا، إلا أنهم إضطروا لتغيير أماكن سكناهم لأكثر من مرة، نظراً لتصاعد العنف أو لتدمير منازلهم، وقد ثبت أن مشاركة أطفال المخيمات في مقاومة الإحتلال هي أعلى من مشاركة أطفال المدن والقرى، ولذلك فهم عرضة للمشكلات النفسية.

أعراض ما بعد الإضطرابات النفسية على أطفال مناطق العنف

من المهم في هذا المجال أن نعرف مدى وجود هذه الأعراض بين الأطفال الفلسطينيين، إن أعراض إضطرابات مرحلة ما بعد الصدمة النفسية تشبه أعراض حالات التوتر النفسي المزمن، لكن ذلك لا يعني أنها أعراض نفسية، ويمكن أن تحدث هذه الأعراض نتيجة لأحداث مختلفة، لكنها في العادة مرتبطة بمصدر قلق من خارج التجربة الإنسانية العادية. هناك شروط لبعض الأعراض من أجل تشخيص حالات ما بعد مرحلة الصدمة. ومنها المرور مرة أخرى بتجربة الاضطراب النفسي (التذكر، الأحلام المتكررة، الشعور بأن الحدث يتكرر مرة أخرى، الحذر في الحواس أو الانعزال عن العالم الخارجي "تراجع الاهتمام

في نشاطات سابقة والشعور بالانفصام عن الآخرين" والحساسية المفرطة وردّة الفعل المبالغ فيها، وعقدة الذنب عند الناجين وصعوبة التركيز وتجنب أي شيء يذكّر بالحدث). ويمكن أن يكون المحفز لعوارض ما بعد مرحلة الصدمة عاملاً طبيعياً "الفيضانات والعواصف" أو بشرياً "الحروب والأحداث النووية" وهو الأكثر دفعاً نحو المشكلات النفسية.وقد أجريت عدة أبحاث على البالغين، لكن الأبحاث الخاصة بالأطفال ما تزال شحيحة، وقد بدأ الاهتمام في هذا الميدان متأخراً. ولكن انتشار هذه الأعراض بين الأطفال لم يتم فهمه بشكل كامل، وهناك نقطة لها علاقة بالأمر، وهي أنه ربما لا يتأثر الأطفال مباشرة بالأحداث الحسية، وإنما قد يتأثرون بالقلق الذي يعانيه والداهم. والانفصال عنهم أثناء الأزمة يمكن أن يزيد الوضع سوءاً. ولذلك يمكن القول بأن الكوارث التكنولوجية ليست أكثر ضرراً بالأطفال من الكوارث الطبيعية، وفي الحقيقة، فإن القوة التدميرية لكارثة طبيعية، يمكن أن تكون أكثر خطراً لإمكانية تأثيرها على علاقة الأبناء بالآباء. وإضافة إلى ذلك، فإن الأطفال يخافون أكثر من الأحداث المباشرة والمادية، وهذا أمر جدير بالاهتمام، فيما يتعلق بالأطفال الفلسطينيين الذين يواجهون عدواً مادياً في الشوارع "الجنود الإسرائيليين".

وقد درس ثابت وفورستانير "وهما باحثان أعدا دراسة مشتركة حول ردة فعل الأطفال في ظل الحروب تجاه الصدمات، تم نشرها في مجلة مختصة بعلم نفس الأطفال عام ١٩٩٩"، درجة ردة فعل الإضطراب النفسي، لمرحلة ما بعد الصدمة على الأطفال الفلسطينيين الذين يعانون من إضطرابات الحرب النفسية، وقد حاولا دراسة العلاقة بين عوامل المشكلة وردة الفعل. كانت عينة الدراسة، أطفالاً من غزة في المرحلة العمرية ٦-١١ سنة. وفي العادة، فإن الأطفال يتعرضون لأشكال متعددة من المشكلات النفسية. إنّ حدّة هذه المشكلات تتبع العمر، فالأطفال الأكبر سناً، مرّوا بأحداث صدمة أكثر من الآخرين.

لقد أظهر العدد الإجمالي لهذه الأحداث التي عاشها سكان شمال غزة، حيث تتركز مخيمات اللاجئين، أعراض مرحلة ما بعد الصدمة، وأعراضاً معقولة متوسطة لردة الفعل الحادة. ومن مسببات الأعراض المتوسطة، التعرض لقنابل

الغاز المسيل للدموع، أو رؤية صديق يستشهد أو يتعرض للضرب، وظهر أن ٧٢,٨% من العينة يعانون من ردّة فعل خفيفة، و٤١% يعانون من ردّة فعل متوسطة أو حادة، ومن الأعراض الشائعة الهواجس والخوف وانعدام التركيز وتجنب المواقف التي تذكرهم بالصدمة.

إنّ مخيمات اللاجئين شمال غزة تعكس جملة من المتناقضات مثل التشرد وعرقلة الدراسة، وانقطاع العلاقة مع المعارف والأصدقاء، والمشهد المتكرر لهدم البيوت. لكن الدراسة لم تتعرض لحياة العائلة وتأثير المشكلة على البالغين. وقد ثبت أن التماسك والتواصل العائلي، والدعم الاجتماعي على مستوى عالٍ، هي عوامل مخففة لآثار المشكلة النفسية، (كوهين ودوتان ١٩٦٧، فغلي ١٩٨٣) (وهم اخصائيون نفسيون أعدوا مجموعة من الدراسات حول الصدمة التي يعاني منها الأطفال في الحروب).

وتتوفر معلومات من دراسات سابقة، حول أثر الحرب على الأطفال في مناطق مختلفة كدراسة صايغ "وهو باحث نفسي أعد دراسة بعنوان أمة تحت الخطر، بحث فيها أثر العنف على أطفال فلسطين تم نشرها بين عامي(١٩٨٩-١٩٩١) والتي استنتج فيها أن ٣٢% من الأطفال الذين شملتهم الدراسة من أعمار ٩-١٣ سنة، قد عانوا من أعراض مرحلة ما بعد الصدمة أثناء الحرب الأهلية اللبنانية وبعدها. أما الباحث شيمنتي "الذي أعد دراسة حول العنف وأثره على أطفال فلسطين عام ١٩٨٩" فيقول أن الأطفال الذين عاشوا تلك الحرب يعانون ١,٧ مرة أكثر من عموم السكان. وقد فرّق بعض الباحثين بين ردة فعل الأطفال تجاه العنف المزمن وردة فعلهم لمشكلات الحرب الحادة. وتقول دراسة أجراها مقصود وعبير "وهما باحثان نفسيان من فلسطين أعدا دراسة حول العنف وأثره على أطفال فلسطين تم نشرها عام ١٩٩٦" أن النزاعات المسلحة المزمنة، المصحوبة بحرمان سياسي واجتماعي واقتصادي، يمكن أن تؤثر بشكل مدمر على نمو الأطفال. ويرى الباحثان أيضاً أن التغير الكبير في أنماط السلوك "العدواني أو السلبي" والمواقف و المعتقدات والشخصية والتراجع الأخلاقي هي إفرازات للمشكلة النفسية الحادة. كما يعتقدان بأن تجربة الحرب

قد لا تكون في كل الحالات سلبية بالمطلق، بل إنها قد تؤدي إلى تقوية شعور الطفل تجاه المعاناة الإنسانية وضحايا العنف.

ويعتقد كولز "باحث أمريكي أعد دراسة بعنوان حياة الأطفال السياسية تم نشرها في بوسطن عام ١٩٨٧" أن الأزمات الاجتماعية والسياسية قد تكون منشطة للتنمية الأخلاقية والوعي الإنساني عند بعض الأطفال.

وترتبط أعراض الاضطرابات النفسية بشدة مع حجم التجربة، فقد أظهرت دراسة صايغ "١٩٩١ والتي سبق ذكرها" أن هذه الأعراض تظهر مباشرة بعد وقوع التجربة، وهذا أمر مهم فيما يتعلق بالأطفال الفلسطينيين، لأن الكثير من الأطفال، ربما يكونون محميين من القتال الحقيقي، لكنهم يتلقون معلومات عن طريق أقاربهم أو معارفهم أو من خلال وسائل الإعلام.

وتشير دراسة غوردون وريث " الباحثين النفسيين اللذين عملا ضمن مشروع أمة تحت الخطر وأعدا دراسة تم نشرها عام ١٩٩٣" إلى أن أشد الآثار فتكاً هو إحداث "شرخ" في العلاقات والقناعات الذاتية والفرضيات والأفكار المستقبلية حول العالم، وتكون المحصلة النهائية لذلك انقطاع الطفولة وفقدانها. وقد عمل ميغوازا " الذي أعد دراسة حول أثر العنف المستمر على الأطفال في سن ما قبل المدرسة في جنوب أفريقيا من خلال رسومات هؤلاء الأطفال" على بحث النتائج السيكولوجية للصراع المدني والعنف على أطفال ما قبل المرحلة المدرسية في جنوب أفريقيا، واستنتجوا بأن الأطفال المعرضين للعنف، كانوا أكثر عرضة للاضطرابات النفسية، والحادة منها، وأنه كلما كان الحدث أو العنف شديداً، كلما زاد احتمال تعرض الأطفال للاضطرابات. ولم تظهر أعراض الاضطرابات النفسية على كل الأطفال الفلسطينيين المعرضين لضغوطات شديدة، فبعضهم يعاني من مشكلات سلوكية خفيفة، بينما حافظ آخرون على وضع طبيعي.

أما تعرض الطفل إلى مرض عقلي، فإنه يعتمد على عوامل متعددة مثل التداخل بين ميزات الشخص "طريقة التكيف، الدعم الاجتماعي والاستعدادات السيكولوجية المسبقة" وبين طبيعة الحدث والمحيط. ومن بين مواصفات الأحداث الإشكالية التي ارتبطت بانعكاسات سلبية في مرحلة البلوغ، هي الحرمان والتشرد والتعرض للعذابات، وقد مر عدد كبير من الأطفال الفلسطينيين بهذه الأمور. وتلعب المرحلة العمرية دوراً مهماً في هذا الميدان، فالأطفال الأصغر سناً يواجهون صعوبات كبيرة في التكيف، ويحتاجون إلى مساعدة أكبر من أقرانهم الأكبر سناً. ووجد روتر "وهو باحث أمريكي أعد دراسة حول تأثير العنف على الأطفال عام ١٩٦٦" أن الأطفال الأصغر سناً هم الأكثر عرضة للإضطرابات الناجمة عن دخول المستشفى أو الطلاق بين الوالدين. ويعتقد ماكوبي "في دراسته التي تم نشرها عام ١٩٨٣ حول العنف البشري الذي يصنعه الإنسان وأثره على الأطفال" أن ذلك يعود إلى أن الأطفال مع التقدم العمري يتمكنون من تطوير حصانة أكبر في مواجهتهم للحدث.

أما تعرض الطفل إلى مرض عقلي، فإنه يعتمد على عوامل متعددة مثل التداخل بين ميزات الشخص، "طريقة التكيف، الدعم الاجتماعي والاستعدادات".

الفصل الثاني

عمر الطفل وارتباطه بالصدمة

إن تعرض الأطفال للصدمات النفسية ينعكس سلباً على سلوكهم، فقد يصابون بمجموعة من الأعراض، مثل فقدان السيطرة على التبول، وتكرار البكاء المصحوب بالتشنج أو فقدان الشهية. وتزداد حدة هذه الأعراض لدى الأطفال في مرحلة ما قبل المدرسة، لفقدانهم المهارات الكلامية المتطورة، ومن هنا تنعكس الصدمات على تصرفاتهم السلوكية، لأنهم لا يستطيعون التعبير عن حقيقة شعورهم بالكلمات، وفي بعض الحالات يتدنى المستوى اللغوي لهم بصورة كبيرة، الأمر الذي يجعل الخبراء النفسانيين يميلون إلى استخدام الرسومات كوسيلة لعلاج هؤلاء الأطفال.

تفترض هذه الدراسة أن بإمكان الأطفال الاستفادة من الرسم لكونه طريقة بدائية للتعبير عن المكنونات الداخلية، إذ أن الطفل يضع على الورق تفسيره للحدث كما يتشكل في عقله. ولعل الصدمات تترك أثاراً متعددة على الأطفال في المراحل الدراسية المختلفة، فنجد أن الأعراض الجسدية كالصداع والاختلال البصري أو السمعي تنعكس على سلوك الأطفال داخل المدرسة، حيث أنهم قد يتشاجرون مع زملائهم أو يرفضون التوجه، إلى المدرسة، كما أنهم قد يواجهون مشكلة ضعف التركيز والانتباه مما يؤثر سلباً على تحصيلهم الدراسي.

قد تتفاقم تأثيرات الصدمة على الأطفال، مما يؤدي إلى دخولهم مرحلة البلوغ المبكر، أو إلى وقف عملية تشكيل الشخصية، كما أن أفعالهم قد تكون مدمرة ذاتياً، بمعنى أنهم قد يظهرون ميلاً للعنف أو الانتحار. لذلك يُعتبر الرسم مصدراً مهماً للتنفيس عن المشكلات، ومن الممكن تعويض الأطفال عن تجارب

الصدمة، ومن هنا يجب تشجيع هذه الوسيلة للتعبير الخلاق والصامت عن المشاعر.

الآثار الملازمة لصعوبات العيش في مناطق النزاعات

يعاني الأطفال الفلسطينيون من ظروف قاسية في حياتهم العامة. وقد يكون من الصعب في بعض الأحيان التفريق بين المشكلات التي تسببها الصدمة، وتلك المتأتية من كل العوامل المرافقة للعيش في بيئة فقيرة. حيث تبلغ نسبة الفقر في فلسطين ٢٩% ويمثل الأطفال والنساء أعلى نسبة فقر، ولا يتمتعون بالرعاية الصحية أو التعليمية أو الاجتماعية الأساسية، وتنتشر البطالة بمعدل كبير، مما يرفع نسبة الإعالة في ظل مجتمع يُقدر عدد الأطفال والشباب فيه "تحت سن التاسعة عشر عاماً" بحوالي ١,٣١٤,٨٦٠ شخصاً أي ما يعادل ٥٨% من السكان.

إن الصورة الديموغرافية في قطاع غزة أكثر خطورة من الضفة الغربية، إذ أن نسبة المواليد في غزة هي الأعلى في العالم، وهي الأكثر اكتظاظاً بعدد السكان (٢٥٥٩ شخص لكل كيلو متر مربع) وفق بيانات اليونيسف لعام ١٩٩٧، وتبلغ نسبة الأطباء (١٢ لكل عشرة آلاف شخص)، مقارنة بالوضع الصحي في إسرائيل والأردن (٢٤-٢٨ طبيب لكل عشرة آلاف شخص). وتزداد صعوبة الواقع حينما نلاحظ تقييد حرية الأطفال في التعليم، وهذا ما يحدث لعدة أسباب، منها أن الأطفال يضطرون إلى المرور عبر عدة حواجز عسكرية، قبل الوصول إلى مدارسهم، وأحياناً يمنع الجنود الإسرائيليون مرورهم، إلى جانب إجراءات منع التجول التي قد تستمر لعدة أيام. ومن جهة أخرى لا تعد المدارس أماكن آمنة في المناطق الفلسطينية، وذلك لأن الجنود غالباً ما يقتحمون هذه المدارس بحثاً عن أطفال مشاركين في المظاهرات، أو لاعتقال المعلمين. وغالباً ما تكون المدارس هدفاً للغارات، وقد يجري قصفها أو تدميرها، وبسبب هذه الأوضاع، لم يتمكن (٤٣%) من الأطفال من إكمال السنة الدراسية، وفي ظل

تلك الظروف يتراجع تسجيل الإناث في المدارس قياساً بالذكور، إذ لم تتمكن معظم الفتيات من إكمال عشر سنوات تعليمية.

مشكلات الأطفال النفسية، تزداد بكثرة عند تعرضهم للعنف العائلي الناجم عن شعور الآباء بالإحباط، فقد ثبت أن الرجال الذين تعرضوا للاعتقال والتعذيب، غالباً ما يلجأون إلى السلوك العنيف عند عودتهم إلى منازلهم، وهذا يعني أن الطفل يظل مُعرضاً للخطر داخل البيت وخارجه، الأمر الذي يجعله يشعر بفقدان الآمان. إن هذا الوضع يُشكّل مصدر قلق كبير للطفل، فلو شعر الطفل بوجود ملجأ آمن أو شخص بالغ قادر على حمايته، فإن ذلك سيخفف من آثار الصدمة لديه، وهذا ما يفسر مشاركة الأطفال بفاعلية في الانتفاضة الحالية، ذلك ان وجودهم مع أترابهم في الوضع ذاته، هو الشكل الوحيد للتضامن الذي يعرفونه، فهؤلاء الأطفال يشعرون بالسيطرة لأنهم يواجهون الخوف والخطر معاً، فهم على الأقل يفعلون شيئاً ما مع زملائهم. إن هؤلاء الأطفال يراودهم شعور بأنهم يثأرون للعجز واليأس الذي يرونه في عيون آبائهم من خلال خروجهم للمظاهرات والمطالبة بحقهم في الحياة.

هذه الظروف جميعها جعلت الحقائق تتضح أمام العالم، حيث تقول منظمة الدفاع عن الأطفال "الفرع الفلسطيني" أن ١٠٥ من الأطفال تحت سن الثامنة عشر عاماً، قد قتلوا في عام ٢٠٠٠، وهؤلاء الأطفال يمثلون ما نسبته ٣٠% من العدد الإجمالي للشهداء. وتُذكّر المنظمة أن ٧٢% من الوفيات بين الأطفال، ناجمة عن إطلاق النار من القناصة الإسرائيليين على الرأس والجزء العلوي من الجسد، وأن أكثر من أربعة آلاف طفل تحت سن الثامنة عشر عاماً قد أصيبوا بجراح خلال الفترة من "سبتمبر إلى ٣١ ديسمبر ٢٠٠٠".

يتضح من تقارير منظمة اليونيسف، أن عدد الأطفال الذين يتعرضون للموت في الحروب الحالية أكبر من عددهم في النزاعات المسلحة في الماضي، إذ تقول غراسا ماشال وهي ناشطة في مجال حقوق الطفل، في دراسة قدمتها للأمم المتحدة عام ١٩٩٦ (إن الصراعات المسلحة تؤدي إلى قتل وإعاقة أطفال أكثر

من الجنود، حيث أن هناك مليوني طفل قتيل في النزاعات المسلحة التي حدثت في العقد الأخير، حتى غدت نسبة المدنيين الذين يقتلون في الحروب مقابل الجنود "٩:١").

لا تقتصر المشكلة على إصابة الأطفال الجسدية، بل إن الآثار النفسية التي تلحق بهم يصعب حصرها نتيجة لارتفاع عدد الأطفال الذين أجبروا على رؤية مشاهد مرعبة، أو حتى المشاركة فيها. ومما لاشك فيه أن الأطفال والشباب الذين وجدوا أنفسهم في وسط الحروب ووسط أشكال الأزمات الاجتماعية الأخرى، سوف يكتسبون سلوكاً يؤدي إلى إعاقة النمو وإلى أضرار جسدية ومشكلات نفسية وسينظر لهم الآخرون كنموذج للرعب والعنف والكراهية.

من المهم الانتباه إلى حقيقة أن ردة فعل الأشخاص تجاه الأحداث المؤلمة، غالباً ما تظهر على شكل مجموعة من الأعراض"مثل الصداع، وألم غير محدد في الجذع والأعضاء والشعور بالدوخة والإعياء".

انتشار المشكلات السيكولوجية بين الأطفال الفلسطينيين

أجرى برنامج الصحة العقلية في غزة عام ٢٠٠٠ أول دراسة عن التأثيرات السيكولوجية، لانتفاضة الأقصى لمعرفة أثر القصف الإسرائيلي للمدنيين في قطاع غزة، وتقدير مدى الصدمة بين النساء والأطفال. وقد شملت الدراسة "١٢١" أماً تتراوح أعمارهن بين ٢١-٥٥ سنة، وعدداً مماثلاً من الأطفال الذين تراوحت أعمارهم بين ثلاث إلى ست عشرة سنة، من سكان المنطقة المجاورة لحاجز تل التفاح في خان يونس ومنطقة بوابة صلاح الدين في رفح.

كان البحث قد توصل لمجموعة من النتائج أبرزها، زيادة نسبة التعرض للصدمة، حيث أن ٩٩,٢% من المجموعة تعرضت منازلهم للقصف، وبالطبع تزداد نسبة التعرض للصدمة نتيجة مشاهدة الأطفال لأشخاص قتلى أو جرحى،

إذ أن ٥١,١% قد رأوا هذا المشهد الدامي، وتجتمع هذه الصور في أذهان الأطفال وذلك أدى ويؤدي إلى زيادة إضطراب مرحلة ما بعد الصدمة، وفي هذا الخصوص، تشير الدراسة إلى تعرض ٥٤,٦% من الأطفال لأعراض الصدمة الحادة، مقابل ٣٤,٥% يعانون من أعراض متوسطة، في حين أن ٩,٢% من الأطفال يعانون من أعراض خفيفة للصدمة. وإضافة إلى الزيادة في أعراض اضطرابات مرحلة ما بعد الصدمة، تم التوصل إلى أن ١٣,٣% من الأطفال يعانون من مشكلات سلوكية وعقلية قوية، مثل اضطرابات النوم، الفوضى الحركية، وصعوبة النطق.

من النتائج الهامة التي توصلت إليها الدراسة، هي زيادة المشكلات النفسية بين الأمهات، إذ تعاني ٢٤,٦% منهن من أعراض الاكتئاب، ومن المعلوم أن هناك علاقة قوية بين الصحة العقلية للأمهات وصحة أطفالهن، فتأثير التجارب الصعبة على الأمهات، يؤثر على الأطفال في نهاية الأمر. أما الأطفال الذين شملتهم الدراسات، فإنهم يحتاجون إلى متابعة علاجية، ويعمل حوالي ٢٢٥ أخصائياً اجتماعياً ونفسياً مع الفرع الفلسطيني لمنظمة حماية الأطفال في الضفة الغربية وقطاع غزة، وقد لاحظ هؤلاء الأخصائيون مجموعة من الأعراض التي تظهر على الأطفال ومنها، الخوف الزائد، الذي يتفاقم بين الأطفال، ممن تعرضت منازلهم لقصف الدبابات الإسرائيلية. ومن الأعراض الظاهرة على هؤلاء الأطفال إضطرابات النوم التي تشمل صعوبة الاستغراق في النوم والأحلام المزعجة. بالإضافة إلى الشعور بانعدام الأمان، إذ يشعر الأطفال بعجز العائلة عن توفير الحماية، الأمر الذي يؤدي إلى اليقظة المفرطة وانتظار وقوع الأحداث. يضاف إلى ذلك أعراض أخرى ذات طبيعة مباشرة، مثل إنعدام الشهية وصعوبة التواصل مع الآخرين، إلا أن هذه الأعراض يتفاوت ظهورها ويمكن أن يعزى ذلك إلى المرحلة العمرية ودرجة التطور العقلي، كما أن التجارب السابقة التي يتعرض لها الطفل تؤثر على قدرته على الاحتمال، وبالتالي تؤثر في قدرته على الاستجابة لمثل هذه الأعراض.

بناءاً على ما سبق، فإنه يعتقد بأن كثيراً من هؤلاء الأطفال يحتاجون إلى تدخل طويل الأمد، وحتى مع هذا التدخل سيكون من الصعب على الأطفال، التغلب على الآثار السايكو-اجتماعية السلبية لأحداث العنف وهذا ما يمثل الوجه الأكثر خطورة للأزمة الحالية.

التطور المعرفي والعاطفي

قدّم الباحث "بوناماكي كوتا" في أطروحة الدكتوراه التي قدمها لجامعة أمستردام بعنوان "العنف والصحة العقلية التجربة الفلسطينية نموذجاً" وذلك في عام ٢٠٠٠، قدّم نظريته في العلاقة بين أحداث عنف الانتفاضة، وبين التطور المعرفي والاستجابة العاطفية للأطفال الفلسطينيين. وقد اهتم الباحث بمعرفة سبب تأثر بعض الأطفال أكثر من غيرهم، لذلك وضع الفرضيات التالية:

١. إن تعرض الأطفال لأحداث عنف يؤثر سلباً على أدائهم المعرفي والوجداني.

٢. ترتبط المشاركة الفعّالة في الانتفاضة بالمشكلات العقلية حسب قياسات النرجسية والاعتداد بالنفس.

٣. يؤثر التعرض لأحداث العنف على التربية البيتية بشكل سلبي.

٤. القدرات المعرفية وأساليب الرعاية الأبوية ومستوى النشاط السياسي وتوقيع اتفاقية السلام، كلها عوامل مساعدة للربط بين التعرض للصدمة وبين الوضع العاطفي للأطفال.

٥. يؤثر هدم المنازل بشكل سلبي على الصحة العقلية للأطفال.

بعد دراسة هذه الفرضيات، توصل الباحث إلى نتيجة مفادها، أن تجربة الصدمة تؤدي إلى درجة عالية من النرجسية والمغامرة. كما وجد الباحث أن تجربة الصدمة لا تعرقل الذكاء أو الإبداع. وكلما ازدادت درجة التعرض للصدمة، كلما تفاقمت نظرة الطفل لأبويه كمتسلطين وظالمين. ولم تخفف القدرات المعرفية والنشاطات السياسية من آثار الصدمة على الصحة العقلية للطفل، في حين كان للرعاية الأبوية دور إيجابي في التخفيف من الصدمة. كما استنتج الباحث أن توقيع اتفاق السلام كان عاملاً مهماً في عملية التكيف، بخلاف هدم المنازل التي تركت أثراً سلبياً على الصحة النفسية للأطفال.

وبخصوص الذكاء والإبداع، وجد "الباحث" أنه لا علاقة لهما بإحداث الصدمة، إلا أن الأطفال الذين مروا بالصدمة يعانون من مشكلات التركيز والانتباه وقوة الذاكرة.

وفي الحقيقة لا نستطيع أن نستنتج من هذا البحث، أن المشاركة الفعلية في الانتفاضة تقوي من الاعتزاز بالنفس، وتقي من المعاناة النفسية. وقد توصل الباحث الفلسطيني "أحمد بكر" في عام ١٩٩٢ إلى نتائج مغايرة أثناء الانتفاضة الأولى، حيث ذكر أن الأطفال الفلسطينيين الذين يعيشون في الضفة الغربية وقطاع غزة، يتمتعون باعتداد بالنفس أكثر من أترابهم في العالم العربي. كما ذكر أن هذا الاعتداد بين أطفال الضفة الغربية أكبر من أطفال غزة، وعزا ذلك إلى الأوضاع الاقتصادية الضاغطة في غزة وإلى الأجواء الأكثر ليبرالية في الضفة الغربية.

فعلى سبيل المثال، يميل أطفال غزة إلى تقديم أنفسهم ضمن منظور واسع (أنا عربي .. أنا فلسطيني)، بينما يأخذ ذلك صبغة ذاتية بين أطفال الضفة (أنا اسمي "فلان".. أنا طويل..إلخ). كما يتفق "بكر" مع الاستنتاج الذي يقول بأن الاعتداد بالنفس يتراجع في ظروف الضغط النفسي. ويشدد "بكر" على أهمية الأخذ بعين الاعتبار، الفروقات الاجتماعية والثقافية والعوامل السياسية التي تؤثر في التعبير عن الذات.

إن الباحث يفسر ذلك الاستنتاج الأخير، بقولـه: (إن الأطفـال قـد شـاركوا بفاعلية في الانتفاضة في أوقات الدراسة، وبسبب التشجيع الـذي تلقـوه مـن المجتمع، لأن بطولتهم زادت من شعورهم بالقوة والاعتزاز بالنفس).

إن الاستنتاج الأكثر أهمية، هو الذي توصل إليه "كوتا"، والمتعلـق بـالنظرة السلبية للسيطرة الأبوية في أعقاب تلقي الأطفال للصدمة، إذ يبـدو أن العقـاب والرفض قد ازدادا نتيجة لدرجة الصدمة، بينما ظل الارتباط العاطفي متماسـكاً. وهذا يعني أن دور الآباء الواقي من الصدمة يجب الإقرار به وتشجيعه. كما أن مصادر المعرفة والإبداع لدى الطفل، لم تتدخل في العادة بين إحـداث الصـدمة والصحة العقلية.

يضاف إلى ذلك، وعلى خلاف توقعات الباحثين، فإن النشاط السياسي يحمـل معه مخاطر على الوضع النفسي للأطفال، ذلك أن هذا النشاط لم يكن فقط عاجزاً عن حماية الأطفال، وإنما ارتبط بتزايد أعراض الاضطرابات النفسية.

لقد وجد "كوتا" أن اتفاقات أوسلو أحدثت أثراً ايجابياً على الأطفال، ذلـك أن مظاهر رفع الأعلام، بشكل خاص، وفرت فرصة لتنفيس الأطفال عن مشاعرهم المكبوتة. هذا الأمر يشير إلى ضرورة تشجيع الأطفال على استخدام المصـادر السايكو-اجتماعية لدورها في شفائهم من العنف.

أمّا فيما يتعلق بهدم المنازل، فقد أظهرت النتائج أن الأطفال والبالغين الـذين فقدوا منازلهم، يعانون أكثر من المجموعة التي لم تفقد بيوتها. وتفسير ذلك هو أن الملجأ السيكولوجي، تم تدميره مع الملجأ المادي، نتيجة لتحويل الآباء مـع أطفالهم إلى ضحايا لا حول لهم ولا قوة.

إن المحصلة العامة لدراسة "كوتا" تشير إلى أن اليافعين الفلسطينيين كـانوا خلال الانتفاضة الأبطال التراجيديين. فقد خسروا دراستهم، وأحيانـاً منـازلهم، والأكثر أهمية، انهم فقدوا شعورهم بالأمن.

مما لا شك فيه أن التعرض لأحداث مؤلمة يسبب ضغطاً نفسياً لمعظم الناس. وهذا الضغط يؤثر بدوره على الجسد والتفكير والعواطف والتوقعات. وعلاوة على ذلك، فإن التكرار الحاد لهذا الضغط، كما هو الحال في الأحياء المهددة يومياً، والتي تتعرض لقصف الدبابات والمدافع الثقيلة، يسبب الإعياء واليأس بالإضافة إلى الشعور بالإحباط والعجز.

إن أطفال فلسطين يتعرضون إلى عنف جسدي ونفسي كبيرين، حيث يظل الأطفال محبوسين في منازلهم. ورغم محاولات الآباء لحمايتهم من العنف إلا أنهم يظلون شهود عيان على ما يجري، وبالتالي تصبح طبيعة هذا العنف أكبر من قدرة الأطفال على الفهم والتحمل.

المخاوف والوساوس

عندما نتحدث عن الأطفال، يجب أن نتذكر حقيقة هامة، وهي "حقيقة ضعفهم". من خلال هذا البحث يظهر الأطفال في فلسطين شجعاناً وأقوياء، لكن الأشياء ليست كما تبدو، لأن كثيراً من هؤلاء الأطفال مسكونون بالرعب والقلق. وقد يكون من الصعب ملاحظة تلك المشاعر الدفينة.

ربما يكون الإحساس بالانتماء لمجموعة ما، من أحد الأشياء القليلة التي تجعل الأطفال يشعرون بأنهم يقاتلون من أجل نموذج يستحق القتال. فهذا الشعور يساعدهم على التخطيط والتنظيم.

إن الخوف الأكبر لأطفال فلسطين هو سجن آبائهم، فحسب "بوناماكي" هناك ٨٣% من أطفال فلسطين تعرّض آباؤهم للاعتقال خلال سنوات الاحتلال الطويلة منذ عام ١٩٦٧، وهذا حدث متكرر في المناطق المحتلة، حيث قال ثلثا الأطفال إن واحداً من أفراد عائلاتهم على الأقل كان سجيناً، ذات يوم، في السجون الإسرائيلية.

إن اعتقال رب العائلة، يعني دمار بقية الأسرة التي يتعين عليها مواجهة العواقب الاقتصادية وممارسات العقاب الجماعي. لكن ما يخفف من هذا الوضع، هو طبيعة المجتمع الفلسطيني، الذي يقدم المساندة لعائلة السجين السياسي، باعتباره مناضلاً تستحق عائلته الاحترام والتقدير.

أما الخوف الثاني، فإنه ينبع من احتمالات مهاجمة الجنود الإسرائيليين للمنازل، وفي هذا السياق، إستنتج البحث أن ٤٠% من الأطفال، يخافون من جنود الاحتلال الإسرائيلي، فالأطفال يخافون من أن يتم طردهم من منازلهم أو تدميرها، إلى جانب القلق على عائلاتهم التي قد تتعرض لسوء.

وقد أظهرت نصف العينة موضوع الدراسة والبحث عند "بوناماكي" خوف الأطفال الشديد من أشياء لها علاقة بالحرب، لكنّ المثير أن ٢٢% منهم فقط قالوا إنهم يخافون المشاركة في المعارك والتي ربما تعني بالنسبة لهم "المظاهرات".

يطرح "بوناماكي" تفسيره لذلك بقوله: (إن التحرر من خوف التواجد في المعركة، يعكس الموروث الاجتماعي عن البطولة والجسارة السائد بين تلاميذ المدارس، أثناء المشاركة في النضال الوطني).

إن ما يثير الاهتمام في هذه الدراسات، هي الأشياء التي يخافها الأطفال، ومن أبرزها التخوف والوساوس على الصعيد التعليمي، إذ أن ٦٢% من الأطفال عبروا عن خوفهم من السلطة والعقاب على أيدي الآباء والمدرسين. وبالمقارنة مع الأطفال في إسرائيل، فإن النسبة في فلسطين تبدو مضاعفة أضعافاً عديدة، إذ قال ٥٦% من أطفال فلسطين أنهم يخافون من تدني علاماتهم في المدرسة، مقارنة مع ٨% من الإسرائيليين. إن مصدر هذا الخوف، هو الاهتمام المبالغ فيه في التعليم، ذلك أن كثيراً من الفلسطينيين يؤمنون بأن التعليم هو الشيء الوحيد الذي بقي لهم. ومن المعروف أن الفلسطينيين من أكثر شعوب العالم العربي تعليماً. ولعل هذا هو السبب وراء استهداف آلة

الحرب الإسرائيلية للمدارس، الأمر الذي يؤدي إلى عرقلة النظام التعليمي وزيادة نسبة التسرب من المدارس. لقد تم إغلاق "١٧٤" مدرسة خلال انتفاضة الأقصى، وتقول تقارير أخرى أن أكثر من عشرين ألف طفل، لم يذهبوا إلى مدارسهم بسبب إغلاق "٢٥٧" مدرسة تشكل ٢٠% من مجموع المدارس في الأراضي الفلسطينية، لم يكتفِ الجيش الإسرائيلي بإغلاق المدارس، بل قام بتحويل أربع مدارس إلى ثكنات عسكرية.

أما فيما يتعلق بالخوف بشكلٍ عام، فقد أعرب ٥٧% من الأطفال الفلسطينيين عن خوفٍ كبير، مقارنة بـ ١٧% من الإسرائيليين فقط، إلا أن الأكثر خطورة، هو معاناة ٦٨% من أطفال فلسطين من مخاوف جسدية ومن أخطرها (لا أقدر على التنفس).

تصل الدراسات إلى نتيجة أخرى، مفادها أن (شخصية الطفل الذي يوجد شهيد في عائلته تتسم بالجسارة والشجاعة، ذلك أن الضغط الاجتماعي المرتبط بمفهوم الشهادة، يحرر الطفل من الشعور القوي بالخوف، إن البطولة تعمل كآلية وقائية تجعل الأطفال ينسون خوفهم وحزنهم).

و النتائج العامة تشير إلى أن الخوف يشكل جزءاً كبيراً في حياة أطفال فلسطين، لكن ربما يرفض "طفل بطل" الاعتراف بأنه يخشى أشياء مرتبطة بالنضال الوطني "كالتظاهرات"، لكن الحقيقة أن هؤلاء الأطفال يعبرون عن خوفهم من أشياء متفرقة، تفرّغ شعورهم الداخلي بالخوف مثل الخشية من الأماكن المظلمة والعواصف الرعدية، وغير ذلك.

الفصل الثالث

فروقات مؤثرات العنف على الأطفال

****

حول الفروقات المتعلقة بمؤثرات العنف على الأطفال، تتابع الباحثة دراستها وتستنتج أن الذكور يعانون من الخلافات العائلية وقضايا الطلاق ودخول المستشفى أكثر مما يعانون من العنف، وأحد التفسيرات التي أوردها "إلدر" – وهو اخصائي نفسي أمريكي أعد دراسة بعنوان أثر العنف البشري على الأطفال نشرها عام ١٩٧٩– هو أن الأباء يضعون آمالاً وتوقعات أكبر على الذكور، ولكنهم في الأوقات الصعبة لا يكونون على استعداد لتقديم دعم إضافي لهم، ولهذا يكون القلق أكثر ملازمة للذكور، بحكم أنهم يملكون معلومات أكثر ووعياً اجتماعياً وسياسياً أكبر، ويميلون إلى الحرب والعنف المرتبط بهما.

يقول الباحث الفنلندي "بوناماكي" في دراسته المنشورة عام ١٩٨٧حول الوضع النفسي والعاطفي للأطفال الفلسطينيين والإسرائيليين أنه لم يجد فرقاً في عينة الأطفال الفلسطينيين بين البنات والأولاد، في مواقفهم من الحرب، وفي كيفية استعدادهم للمشاركة في النضال الوطني، وتقييمهم لاحتمالات السلام. وفي اتجاه معاكس بخصوص التوقعات، وجد الباحث فارقاً بسيطاً وهو أن البنات تمتعن بمواقف أكثر ثباتاً من الأولاد بخصوص الحرب والكفاح الوطني. ويحمل الأولاد والبنات مواقف متشابهة جداً تجاه القبول الواقعي للحرب، وتجاه استعدادهم للمشاركة في النضال الوطني. ونظراً للوضع القائم في الضفة الغربية وغزة، يبدو أن الأولاد والبنات أصبحوا مستعدين اجتماعياً لقبول واقع الحرب والتعامل معها بشكل عملي. لقد أثبت الواقع أن الأطفال الفلسطينيين من كلا الجنسين، يشاركون في المظاهرات والصدامات مع الجنود الإسرائيليين بنفس الدرجة. وهنا علينا تذكر نقطة سابقة وهي أن الأطفال ربما لا يهتمون

بالأخطار مباشرة، وإنما يمكن أن يتأثروا بالقلق الذي يبديه الآباء. وهناك كتابات كثيرة في الماضي ذكرت، أن الأطفال يتأثرون سلباً بالمواقف أو الأحداث التي تفصلهم عن معيليهم الأساسيين، وهذا هو الذي يفسر لماذا يميل الأطفال أثناء الأزمات إلى جعل الوضع أكثر رعباً وقلقاً مما هو عليه في الواقع. يستطيع الأطفال مواصلة التكيف مع الأوضاع الصعبة، والحفاظ على قوة مقاومة، طالما لم يصبح قلق الأباء أكبر من طاقة تحملهم. أما إذا زاد الوضع عن هذا الحد، فإن نمو الأطفال يتدهور بسرعة وبوضوح، ذلك أن احتياطي التحمل لديهم يأخذ في النفاد، ونتيجة لانعدام الرعاية اليومية، تصبح معدلات الوفيات عالية، وتزداد كذلك نسبة الاستغلال وسوء المعاملة. ولا يتوقف الأمر عند هذا الحد، "فالأخلاق تصبح ضحية الوضع" وذلك حسب دراسة الباحث الأمريكي "غابريانو حول تصرف الأطفال المعرضين للعنف".

من أكثر أعراض الاضطرابات النفسية، هو المرور بالتجربة مرة أخرى من خلال الأحلام واستعادة تفاصيل الحدث أو الاسترجاع والتذكر بشكل معين، كما لو أن الحدث يعود مرة أخرى. وقد بحث "بوناماكي" في دراسة "تم نشرها عام ١٩٩٨ حول دور الأحلام في الحماية النفسية للأطفال" جانباً مختلفاً للأحلام، وهو الجانب الوقائي، ووجدت الدراسة أن الأطفال الذين استخدموا أدوات التحمل تجاه القمع تتكرر أحلامهم، للتعبير عن مكنون عقلهم الباطن، ومواقفهم منها، ولذلك فإنها تعتقد بأن الأحلام يمكن أن تكون ملجأ آمناً، للتنفيس عن المشاعر، بعيداً عن أجواء الإساءة والإرهاب اليومي. إلا أنه يقول بأن الأحلام المتكررة للهجمات، تشير إلى أن المشكلة أصبحت جزءاً من الحلم، لكنها فشلت في تحويل الرؤية إلى نظرة أقل إيلاماً، مما يؤدي إلى تدهور في الوضع السيكولوجي.

هناك جانب آخر لهذا الاضطراب النفسي، وهو "فقدان الذاكرة العاطفية" بمعنى أن الشخص يواجه مشكلة في الإحساس بالمشاعر، وقد يعاني من فقدان الاهتمام بأشخاص أو نشاطات سابقة. وهناك عامل آخر يتمثل في فقدان الإثارة عند رؤية السلاح أو التدمير والعنف والصدمات التي تجري من حوله بشكل

يومي. وهناك أعراض أخرى تتمثل في ردة الفعل التلقائي، مثل الارتجاف والتحفز وصعوبة النوم وضعف الذاكرة.

وقد تم الاستنتاج، أن التجارب العنيفة والمشاركة في الانتفاضة ترتبطان بالتركيز والانتباه والذاكرة، فالأطفال الذين مروا بتجارب عنيفة، حصلوا على درجات أقل في اختبار الذاكرة. وهناك استنتاج آخر يستحق الاهتمام، وهو أن الأطفال الذين يعانون من اضطراب نفسي حاد، والذين شاركوا بفعالية في الانتفاضة، حصلوا على علامات أعلى من الذين شاركوا فيها بشكل سلبي. وهذا ما يؤسس للفكرة القائلة بأن التكيف الإيجابي عبر المشاركة في الانتفاضة يعمل كعنصر وقاية حتى لو كان في ذلك التعرّض لمزيد من الأخطار -حسب دراسة كوتا بوناماكي وإياد السراج- حول علاقة أثر تجارب العنف التي يعيشها الأطفال على نشاطهم وإنعكاسها على عواطفهم. ويحاول بعض الأطفال تجنّب ما يذكرهم بالأحداث العنيفة لأن الأعراض قد تصبح أكثر حدة في هذه الظروف، وربما يشعر بعض الأطفال أيضاً، بالذنب تجاه الظروف المحيطة ببقائهم، وهذا ما يسمى بعقدة البقاء، وقد سبق بحث هذه الظاهرة على الطلاب الكمبوديين الناجين من الحرب الهندية-الصينية (كينزي، دراسة في أثر الحروب والكوارث على الصحة النفسية، تم نشرها عام ١٩٨١).

العدوانية

يجب أن تكون العدوانية من بين الاهتمامات الرئيسية عند بحث الآثار السيكولوجية على أطفال مناطق الصراعات العنيفة. وقد استخدم "بوناماكي" عام ١٩٨٧ طريقة مبسطة لاختبار روزنفيغ لبحث مسار وطبيعة عدوانية الأطفال الفلسطينيين، وقد تبين أن ٣١% من هؤلاء الأطفال يميلون إلى تجاهل وإنكار الميل العدواني مقارنة ب ٢٢% من الأطفال الإسرائيليين. كما عبر الأطفال الفلسطينيون أيضاً عن مشاعر عدوانية خفيفة بشكل مباشر أكثر من الأطفال الإسرائيليين. وفيما يخص الفروقات الجنسية، فقد تبين أن الأولاد عبروا عن عدوانية أكثر من البنات اللواتي يملن إلى توجيه العدوانية إلى الداخل أو

تجاهلها. ويقول "بوناماكي" أن استنتاجاته لا تتماشى مع الفكرة القائلة بأن الطفل الذي عانى من الاضطرابات النفسية نتيجة لتجارب الحرب، يكون أكثر عدوانية. والمواجهات مع الجنود الإسرائيليين تزيد من عدوانية الأطفال، ولكن ربع الأطفال الذين شاركوا فيها أظهروا قليلاً من العدوانية، مقارنة مع نصف الذين لم يشاركوا. ومن خلال رؤية تعليمية اجتماعية، يجب الاهتمام أيضاً بالقدوة، فالأطفال يميلون في ظروف الصدامات العنيفة إلى تقليد الشخصيات القوية، لأن ذلك يساعدهم على الهروب من دائرة الضعف إلى دائرة القوة، حتى لو تم ذلك عن طريق اللعب.

يقول السراج في دراسة نشرها عام ٢٠٠١ -حول الاضطراب الناجم عن العنف، دراسة تطبيقية على أطفال غزة- أن الأطفال قد تحولوا عن تقليد آبائهم إلى تقليد الإسرائيليين، وهذا ما يسمى "التماثل مع العدو"، والأطفال يلجأون إلى ذلك الأسلوب كتكيف مبكر مع الأزمة. وفي استفتاء لثلاثة آلاف طفل أثناء الانتفاضة الأولى، قال ٤٥% منهم أنهم شاهدوا الإسرائيليين وهم يضربون آباءهم.

دور الأيديولوجيا وتأثير العنف السياسي على الأخلاق

هناك مؤلفات مهمة عن أثر الحرب على الأخلاق، ودور الالتزام الفكري والارتباط بين الاثنين، فعندما تكون الأيديولوجيا السياسية التي تعكس نزاعاً عرقياً عنيفاً، مترافقة مع تجارب الخطر المزمن، فإنها مرشحة لأن تكون القوة الرئيسية المحركة للمتطوعين للمشاركة في العنف، حسب دراسة "الباحث الأمريكي فيلد الذي أعد دراسة حول ما يخبرنا به الأطفال المعرضون للعنف عام ١٩٨٧" وربما ترتبط بتطور أخلاقي مشوش تهيمن عليه عقلية الانتقام.

كما يظهر البحث الذي قام به في أيرلندا الشمالية والشرق الأوسط، أن هؤلاء الأطفال ظلوا في مراحل بدائية من التطور الأخلاقي، في وقت يكون أترابهم في مجتمعات "تتسم بقلة العنف العرقي" قد بلغوا مراحل متقدمة من التطور

الأخلاقي. وربما يعود السبب في ذلك إلى خليط من القوى الثقافية والاجتماعية، وقد تعتمد حركة التخلص من الانتقام على البيئة الاجتماعية المحفزة لعملية الحوار، والتي تنقل الضحايا من الأطفال واليافعين إلى تقدير المبادئ التي توفر أرضية فكرية للتعايش.

كما يعكس الوعي الأخلاقي المتقدم المستوى الذي يتم فيه تشجيع الأطفال على المساهمة في الانخراط الاجتماعي والنقاشات الموجهة، مما يؤدي إلى إطلاق طاقات الطفل المعرفية وتوسيع مداركه، وإدارة المواجهات الفكرية من خلال المثل والمبادئ أساساً. ومن بين الاستنتاجات المتعلقة بالتطور الأخلاقي بين الأطفال الذين يعيشون ظروف الحرب، هو ما جاء في دراسة -الباحث اليوغسلافي "أجوكوفيتش" الذي أعد دراسة حول العنف في كرواتيا وإسرائيل وفلسطين وأثره على الأطفال اللاجئين وأوضاعهم النفسية- بأن الأطفال الأكبر سناً والذين مروا بتجارب حرب أكبر، أظهروا منسوباً عالياً من الولاء الشخصي، والمسؤولية أثناء الحرب، أكثر من أولئك الذين تنقصهم الخبرة. ويقول "بوناماكي" أن المواقف الأخلاقية للأطفال الفلسطينيين تنسجم مع إيمانهم بعدالة النضال الوطني، وهناك ارتباط أيضاً بين المواقف المتعلقة بالنضال الوطني واستعدادات الأطفال الشخصية للمشاركة فيه، مما يعني عدم وجود تناقض بين المبدأ والممارسة.

لكن "بوناماكي" ذكر أن نصف عينة الأطفال، موضوع البحث، قالوا أن الحرب سيئة دائماً، مع أن ٨١% منهم قالوا بأن الحرب ضرورية في بعض الأحيان، كما اتفق معظم أطفال الضفة الغربية على "أن الحرب شيء حسن، عندما يهزم الفلسطينيون عدوهم من خلالها".

وهنا يظهر بعض التناقض في أفكار الأطفال عن الحرب وكونها سيئة عموماً وبين ضرورة دعم نضالهم الوطني الذي يعتقدون بأنه شرعي وبأنه الطريقة الوحيدة لاستعادة وطنهم. وقد ظهر أن الأطفال على استعداد لتقديم التضحيات في سبيل وطنهم، كما أعربوا عن إعجابهم بمقاتليهم، وهذا يعني النظر إلى

النضال بطريقة إيجابية تؤكد على الولاء للوطن. وقد أعرب ٩٨% من الأطفال عن إعجابهم بالفدائيين، وعن رغبتهم جميعاً في رؤية آبائهم كأبطال حرب، ويرجع ذلك إلى تعزيز المكانة الاجتماعية والشعور بالفخر. وكذلك اتفق معظم الأطفال "٩٢%" على أن كل إنسان يجب أن يموت من أجل الوطن، وأن المشاركة في المعركة أمر مثير. وكان هدف "بوناماكي" من طرح هذه الأسئلة هو قياس أبعاد الولاء والشعور بالمسؤولية في الحرب وعلاقة ذلك بالأخلاق والأيديولوجيا.

وتعتبر الأيديولوجيا التعبير الشعبي للظواهر العامة، وهي تحتل مكانة بارزة كمقياس للتكيف تحت ظروف الخطر الشديد. يقول بيتلهايم -في دراسة أعدها عام ١٩٤٣ حول السلوك الفردي والجماعي في المواقف الصعبة- (أن الذين نجحوا في التكيف في معسكرات الاعتقال النازية، كانوا من الملتزمين فكرياً "الأصوليين والشيوعيين" مما أعطاهم حافزاً لتحمل العذابات اليومية). وفي الصراع الإسرائيلي-الفلسطيني الدائر في الضفة الغربية وغزة، تلعب التنظيمات الإسلامية الأصولية "مثل حماس" هذا الدور بالنسبة للفلسطينيين بينما تقوم المجموعات الصهيونية المتطرفة بالشيء ذاته في صفوف الإسرائيليين، أما اليهود العلمانيون، فإنهم يعانون من القلق، لأنهم مشتتون وهم يحاولون الحفاظ على توازن بين الولاءات والمبادئ المتصارعة، مثل التزامهم بالمثل الديموقراطية ومبادئ اليهودية وحرصهم على الأمن الوطني في الوقت نفسه. ونتيجة لذلك، رفض مئات من الجنود الإسرائيليين، لدواع أخلاقية، الخدمة العسكرية والنشاطات البوليسية في مواجهة الانتفاضة الفلسطينية في الضفة الغربية وغزة. وأثبتت الأبحاث أن التعرض للعنف يزيد من الالتزام الأيديولوجي (كما خلصت لذلك أبحاث بوناماكي عام ١٩٩٦ وأبحاث زئييف حول أثر العنف على الأطفال). ولهذا الأمر وظيفة سيكولوجية، فالناس بحاجة للإيمان بأنهم يحاربون من أجل شيء مهم للإبقاء على آمالهم حية، وكلما عانى الأطفال من العنف، كلما شعروا بالحاجة إلى الاستمرار في النضال، ويمكن أن تكون القناعات الفكرية مفيدة لوضع الأطفال النفسي، وبخاصة إذا لم تكن مدمرة

للشخصية. وتفسير ذلك أن تجربة الحرب والعنف تزيد من الحكم الأخلاقي للأطفال ومن نظرتهم للحرب بأنها سيئة، وذلك بدوره يدفع إلى استعداد أكبر لدعم الأعمال البناءة، التي قد تؤدي إلى حل الصراع.

يرى الباحث الأمريكي "كوستلني غابَريانو" في دراسته المنشورة عام ١٩٩٤ أن الالتزام الأيديولوجي يمكن أن يحيّد تجارب العنف لدى البالغين، وذلك لأن الأيديولوجيا يمكن أن تلعب دوراً مهماً في الحفاظ على قدرة الاستمرار، تحت ظروف الضغط الشديد في النزاعات السياسية، من خلال إعطاء معنى ومضمون للوقائع الخطيرة. وبالتأكيد فإن القلق والتوتر الأخلاقي هما الثمن الذي يدفعه الإنسان المتعقل أخلاقياً، والأيديولوجيا رافد سيكولوجي، وكلما كان هذا الرافد قوياً، كلما زاد النمو الأخلاقي، وقد يشكل عائقاً أمام التسوية السياسية. ويمكن للتفسيرات السياسية والدينية أن تلعب دوراً مهماً في تشكيل مسار التجربة، وبخاصة عندما تكون فعّالة، مثلما هو الحال عادة، عندما يقاتل الإنسان ضد الثقل المدمر لواقع العيش في السجن أو مخيم اللاجئين. وقد لاحظ "بوناماكي"، أن الفلسطينيين الذين يرزحون تحت الاحتلال ويعيشون في مخيمات اللجوء، يواجهون الحرمان والضغوطات اليومية من خلال الموقف الأيديولوجي الذي يجمع المصادر السيكولوجية والاجتماعية. وتحتل فكرة الصمود مكاناً بارزاً في تحليلات الثقافة الفلسطينية، عند حصار المخيمات في لبنان على سبيل المثال. إلا أن الأيديولوجيا يمكن أن تكون مصدر تناقض، كما يعتقد "غابرييانو" حيث يقول انها يمكن أن تشجع البالغين وتزيد من طاقاتهم على التحمل، كما يمكن أن تطيل الأوضاع وتزيد من تدهور الصراع ، مما يؤدي إلى زيادة التحديات في وجه الآباء والأطفال، على المدى الطويل.

من الأسباب التي تجعل الأيديولوجيا مهمة في عملية التطور الأخلاقي هي أن يكون البالغون على درجة من التعقل لنقل الأطفال من مرحلة دنيا إلى مرحلة أعلى من الحكم الأخلاقي على الأمور. وكما يقول "غابرييانو"، فإنه إذا كان المدرسون غير مبالين، ولا يرغبون أن يكونوا مثالاً أعلى للعقلانية، أو إذا ما تعرضوا للإرهاب، فإن عملية التراجع الأخلاقي المرافقة لحالات النزاعات

العنيفة، سوف تسير دون عراقيل. ومثال ذلك ما حدث في إيرلندا الشمالية، إذ كان المدرسون البروتستانت والكاثوليك على قناعة بأنّ العناصر المتطرفة ستحول دون إنجاز مشروعاتهم الحوارية التي تشجع على العقلانية. ويمكن لحالات الخطر المزمن أن تحفز عملية التطور الأخلاقي، إذا ما ترافقت مع جهد البالغين (وإذا لم تعرقلها الثقافة الأوسع من خلال المؤسسات السياسية والتعليمية والدينية)، على أن يكون الطفل سليماً من أعراض مرحلة ما بعد الصدمة. ويمكن للعائلات أن توفر الإطار العاطفي لعملية التوعية الأخلاقية الإيجابية، لفهم الخطر، أو حتى الصدمة، ويمكن للمجتمعات أيضاً أن تنقل العملية إلى المرحلة اللاحقة من خلال تعميم الأجواء الديموقراطية في المدارس على سبيل المثال. وعندما ينجم الخطر من النزاع السياسي في إطار اجتماعي معاد للديموقراطية فإن النتيجة ستكون تراجع المفهوم الأخلاقي، كما لاحظ "فيلدز" في إيرلندا الشمالية، وبخاصة بين الأولاد المعرضين للخطر.

كيف يتعامل الأطفال مع الانتفاضة؟

الاستنتاجات المستخلصة من دراسات عديدة، والتي تناولت ردات الفعل اليومية تجاه تجارب صدمة سابقة، تشير إلى عدة عوامل تساعد على التكيف الاجتماعي –وذلك وفق دراسة (لهورليمان ولوزيل ١٩٩٠) وهما باحثان أمريكيان أعدا دراسة حول ما يخبرنا به الأطفال المعنفون.

ومن هذه العوامل:

١. محاولة التكيف مع المشكلة بدلاً من الاكتفاء بردة الفعل.
٢. التنافس المعرفي.
٣. تجارب إثبات الذات والثقة بالنفس.
٤. محاولات التكيف وبناء العلاقات الإيجابية مع الآخرين.
٥. علاقة عاطفية مستقرة مع أحد الوالدين، أو مع شخص قريب.

٦. جو تعليمي منفتح ونموذج للسلوك الأبوي الذي يشجع التأقلم مع المشكلات.

٧. المساندة الاجتماعية من أشخاص من خارج العائلة.

لقد تم تصنيف هذه العوامل بأنها مهمة، عند ظهور الضغوطات النفسية في المجتمعات الصناعية الحديثة، لكنها يمكن أن تكون نقطة البداية للجهود الرامية، إلى فهم الطبيعة الخاصة بالتكيف مع الظروف الضاغطة للعنف المزمن. والأطفال الفلسطينيون الذين يتعرضون لهذه التجارب المرعبة، كيف يمكنهم تحملها؟

إن الأطفال المجبرين على العيش في خطر مزمن، قد يلجأون إلى وسائل شاذة، فقد يتبنون وجهة نظر عن العالم، تعتبر شاذة في الأحوال الطبيعية، فعلى سبيل المثال، إن سلوكهم المتكيف مع الأوضاع غير الطبيعية لأزمة مزمنة، قد يكون غير ملائم للنجاح المدرسي، إذا ما حموا أنفسهم من خلال العدوانية المفرطة، مما يؤدي إلى رفضهم في المدرسة. ويمثل الانسحاب الوجداني نوعاً آخر من ردات الفعل تجاه الضغوطات النفسية. وهذا يمكن تحمله اجتماعياً على المدى القصير، لكنه قد يصبح خطراً على الجيل اللاحق. فقد اكتشف "بوناماكي" بعض النتائج المهمة بخصوص استجابة التكيف ودرجة التعرض للمتاعب السياسية، حيث أن الأطفال الذين تعرضوا لهذه المتاعب عام ١٩٨٢ زادوا من نشاطهم في الانتفاضة الأولى، وفي عام ١٩٨٥ وفي أعقاب الغزو الإسرائيلي للبنان ومذابح صبرا وشاتيلا، حافظ الأطفال على نشاط متزايد رداً على المتاعب السياسية. وفسّرت الباحثة ذلك، كردة فعل على عنف واضطهاد الاحتلال. فالأطفال الذين يشاهدون إذلال وعذابات أبناء وطنهم، قد لا يجدون وسيلة أخرى للتعامل مع هذا الوضع، باستثناء العمل بحماس لتغيير الوضع من خلال التفاعل الإيجابي. ومن المهم هنا الإشارة إلى أن المجتمع يحبذ هذا النموذج الشجاع من التفاعل في ظروف النضال الوطني.

كما أجرت الباحثة أيضاً مقارنة مهمة على المستوى الوجداني، فالأطفال الذين أظهروا تفاعلاً ايجابياً في عام ١٩٨٢ "بعد غزو لبنان ومجازر صبرا وشاتيلا"، لجأوا للشجاعة كوسيلة وجدانية للتحمل. إلا أن الأطفال في عام ١٩٨٥ أظهروا عجزاً أمام المتاعب وازداد شعورهم بالإحباط عندما تعرقلت الآمال الوطنية الجماعية للشعب الفلسطيني مؤقتاً. وهناك نتيجة أخرى تتعلق بمستوى أحداث الصدمة ونتائجها النفسية، فقد وجد كل من "بوناماكي كوتا والسراج" أن الأطفال الذين مروا بأحداث صدمة شديدة وتصرفوا بشكل سلبي، قد عانوا من أعراض مرحلة ما بعد الصدمة. وكذلك الحال بالنسبة للأطفال الذين يرون أن الأم مصدر حنان ورعاية على عكس الأب، وقد تمتع هؤلاء الأطفال بدرجة عالية من الذكاء، ولكن بدرجة متدنية من الأداء الإبداعي، فظهرت عليهم أعراض الاضطراب العاطفي. وقد افترض الباحثون أنّ القدرة المعرفية والنشاط المتواصل يمكن أن تكون عوامل تكيف إذا ما شعر الطفل بالحنان المنزلي. وأثبتت هذه الفرضية صحتها، مثلما ثبتت صحة فرضية، أن الاضطراب العصبي ازداد بشكل كبير على مدار ثلاث سنوات (من ١٩٩٣ في خضم العنف السياسي إلى ١٩٩٦ عندما أصبحت الظروف أكثر هدوءاً)، وبخاصة بين الأطفال الذين مروا بأحداث صدمة متعددة. وقد وجد الباحثون أن الأطفال الفلسطينيين الأكبر سناً يستطيعون التكيف معرفياً ووجدانياً أكثر من الأطفال الأصغر سناً، وكذلك كان الأولاد يستطيعون التكيف سلوكياً أكثر من البنات اللواتي يلجأن إلى التكيف العاطفي. وقد ارتبط التكيف بدرجة العنف السياسي، فكلما اشتد هذا العنف، كلما قلل الأطفال من مساهماتهم في المواجهات. وقد كان مخزون تكيف الأطفال أثناء فترة تصعيد القتال قليلاً، وتضمن نماذج تكيّف عاطفية ومعرفية ضيقة. وزاد التعرض الشخصي لأحداث الصدمة من التكيف المسلكي، والمقاومة النشطة، وزاد ذلك بدوره من أساليب التكيف المسلكي. أما مفعول تخفيف المشكلات النفسية، فقد اختلف حسب درجة العنف السياسي. حيث أن المقاومة النشطة والتكيف المسلكي كانا فاعلين أثناء الانتفاضة فقط، وليس قبلها. فقد أراد كوتا وزملاؤه استكشاف دور المرونة الذهنية، مقابل التشدد الذهني في تفسير التكيف النفسي مع

ظروف الانتفاضة العنيفة والسنوات الثلاث اللاحقة، فتوصلوا إلى وجود دور مخفف للمرونة الذهنية في حماية الأطفال من الآثار السلبية، بعيدة المدى لأحداث الصدمة. كما تبين أن المرونة الذهنية أثناء العنف السياسي، لا ترتبط بالتكيف النفسي، لأنها تتمدد من خلال العوامل البيئية والمعرفية. وكلما زاد ذكاء الأطفال وقلّ تعرضهم لأحداث صدمة، كلما أظهروا مرونة ذهنية أكبر، ويعود ذلك إلى الالتزام الأيديولوجي الشديد الذي يصبح عنصر وقاية أثناء الظروف السياسية الحادة. ولذلك فإن التشدد الأيديولوجي والمرونة الذهنية لا يتماشيان معاً.

مفاهيم السلام

بعدما استعرضنا الآثار النفسية للعنف السياسي الدائر في المناطق المحتلة، سنعالج مسألة كيف ينظر الأطفال إلى السلام. فقد ركزت هذه الدراسة حتى الآن على الصراع والحرب والعنف المصاحب لهما، والدمار الناجم عنهما، ولربما تم إغفال فكرة "الأمل"، فقد توجد في ذهن كل طفل فلسطيني أمنية بالسلام المجهول وغير المعروف بالنسبة له، وحتى عندما يسود هدوء نسبي يخلو من الغارات العسكرية، فإن ذلك لا يعني سلاماً حقيقياً وتحرراً للفلسطينيين من الاحتلال، ولذلك فمن المهم أن نعرف كيف ينظر هؤلاء الأطفال إلى السلام وهل يعتقدون باحتمال حدوثه في المستقبل. ففي أثناء الانتفاضة الأولى، بحث "بوناماكي" عام ١٩٨٧ في موقف الأطفال الفلسطينيين من السلام، وقد وجد أنهم كانوا متشائمين في تقديراتهم لاحتمالات السلام في العالم عموماً، وفي وطنهم على وجه الخصوص، حيث ذكر ٧١% منهم أن العالم سيظل يشهد حروباً، وقال ٨٨% أنهم لا يعتقدون بإمكانية وقف الحرب التالية، ولم يوافق سوى ٥٢% على عبارة "لا يوجد بيننا من يريد الحرب". والنقطة الإيجابية هي أن الفلسطينيين كانوا متفائلين بخصوص العدو، كان ربعهم فقط يعتقد أن العدو سيظل عدواً على الدوام. وجاء في دراسة بوناماكي: (لقد أصبح وضع القتال والتوتر الدائم وأفكار الحرب والمعارك والنصر وتهديد العدو، أموراً مألوفة للأطفال أكثر من الفكرة المجردة لسلام

مجهول). والأطفال الفلسطينيون هم دون شك بحاجة ماسة إلى المساعدة، بالنظر إلى تراكم الآثار النفسية للعيش في مناطق العنف والصراع السياسي، لكن السؤال الملح هو: ما العمل؟

لقد أنشأ "إياد السراج" برنامج الصحة العقلية في غزة عام ١٩٩١، والبرنامج منظمة غير حكومية تدير ثماني عيادات للأطفال والنساء وضحايا التعذيب، فتقدم لهم الاستشارات والعلاج والأدوية. وقد قامت هذه المنظمة بعمل كبير بين سكان غزة، وأجرت عدة دراسات حول تفشي المشكلات العقلية وأسبابها وطرق مساعدة المحتاجين. لكن هذه المنظمة، لسوء الحظ، واحدة من بين منظمات أخرى قليلة تحاول مساعدة أطفال غزة وعائلاتهم على تحمل ضغوطات الحياة المخيفة، مما يستدعي الحاجة لعمل أكثر اتساعاً لتوفير خدمة أكبر. وبمساعدة مختصين ومحللين يكون الرسم وسيلة فعالة للمساعدة.

الرسم كأداة تشخيص وعلاج

تهدف هذه الدراسة إلى البحث في كيفية استخدام الرسم كوسيلة تشخيصية وعلاجية، وتعمل على مقارنة الموضوعات التي يرسمها الأطفال الفلسطينيون، برسومات الحرب لأطفال يعيشون في مناطق هادئة، وقد وقع الاختيار على رسومات أطفال هنغاريا وذلك لمعرفة ما إذا كان الأطفال الفلسطينيون يعيشون في منطقة اضطراب سياسي، وكذلك معرفة كيف يمكن استغلال الرسم في عملية علاج هؤلاء الأطفال.

من المعروف، أن الرسم هو نشاط طبيعي في حياة الطفل، ويبدو أن كل الأطفال يميلون إلى الخربشة، وكلما أمسكوا ورقة وقلماً بدأوا بالرسم، ويصل الأطفال عادة إلى مراحل معقدة من الرسم في مراحل النمو المختلفة، فلو أعطينا طفلين قلماً وورقة فسوف يرسمان بتركيب متشابه وبمستوى معقد، إذا ما كانا في نفس مستوى النمو، إلا أن مضمون ما يرسمانه هو خيار شخصي، ويمكن أن يأخذ أي شكل في مخيلة الطفل. وقبل المرحلة الحركية وخلالها،

تكون مرجعية الطفل بصرية وحركية، ولهذا يستغرق الرسم وقتاً طويلاً. وهذه المرجعية هي المرجعية المفضلة للتواصل أكثر من اللغة التي تستخدم في مرحلة النمو اللاحقة.

وقد صنف "لوكيه" – وهو باحث بريطاني أعد دراسة حول الأعراض الرمزية للسلوك– الرسم ضمن الألعاب، وفي الحقيقة فإن أشكال الرسم الأولى لا تبدو مقلدة، وتحمل صفة اللهو المحصن، إلا أن هذا اللهو تدريبي، لأن الطفل يبدأ لاحقاً في التعرف على الأشكال في الخربشة، مما يدفعه إلى محاولة تشكيل نموذج من الذاكرة. وعندما توجد هذه النية يأخذ الرسم شكل الصورة والتقليد. وكما يقول بياجيه وانهلدر –وهو باحث بريطاني أعد دراسة حول الأعراض الوظيفية والنفسية التي يتعرض لها الأطفال المعنّفون– أنه عند حوالي سن العام ونصف العام إلى عامين، أو عند نهاية المرحلة الحسية– الحركية للطفل، تبدأ المرحلة الأساسية لتطور أشكال السلوك اللاحقة. وهذه تشمل القدرة على تمثيل شيء ما "مثل الشكل أو الحدث" من خلال دلالة لها غرض تشبيهي فقط "لغة أو إيماءة..إلخ". وهناك خمسة نماذج للسلوك على الأقل، تحدث متزامنة في الغالب. وأولها هو المحاكاة التي تبدأ بعد اختفاء الشكل، وهذا يتعلق بما ذكر سابقاً حول (التوحد مع العدو) وتقليد التصرف العدواني. والنموذج الثاني هو اللهو الرمزي المعروف بلعبة التظاهر التي تكون فيها الأشياء رمزية. أما الرسم فهو المرحلة الثالثة، وهي حلقة ربط بين اللعب والتصور الذهني، وهذه لا تظهر قبل عمر العامين أو العامين والنصف، ثم تظهر الصورة الذهنية، وهي المحاكاة الذاتية، وأخيراً تأتي اللغة التي تسمح بالتذكر الكلامي لأحداث ليست آنية الوقوع. والرسم من مكونات الوظيفة العلاماتية، وهو الأمر المهم في هذه الدراسة، فالرسم يشبه اللعب الاستدلالي في وظيفته الامتاعية، كما يشبه الصورة الذهنية عند محاولة محاكاة الواقع.

هناك رأيان مختلفان حول الرسم، يقول أحدهما أن رسومات الأطفال الأولى واقعية بالضرورة عندما ترتبط بالنماذج الحقيقية. أما الرسم المتخيل فلا يظهر

إلا في مرحلة لاحقة. ويصر "الرأي الآخر" على أن الخيال يظهر في الرسومات المبكرة، وقد حسم "لوكيه" هذا الخلاف عندما أثبت أن رسومات الطفل حتى سن الثامنة أو التاسعة تكون واقعية، ذلك أن الطفل يبدأ برسم ما يعرفه عن شخص أو شيء، قبل أن يتمكن من رسم ما يراه حقيقة. وهذا أمر مهم عند محاولة شرح رسومات الأطفال، ويصبح أكثر أهمية عند تفحص رسومات أطفال يعانون من صدمة أو مشكلات عقلية. وتوجد معلومات كثيرة حول عملية تطور الرسم أثناء فترة الطفولة، كما تم بذل جهد كبير في تحديد المراحل المختلفة للتركيب البصري والواقعية. فعلى سبيل المثال، اقترح "لوكيه عام ١٩٢٧" مراحل وتفسيرات ما تزال متبعة حتى اليوم. فقد افترض أولاً أن الأطفال يبدأون برسم ما يعرفونه عن شخص ما، والطفل يفعل ذلك قبل أن يتمكن من رسم ما يشاهده، ذلك أن الواقعية في الرسم تمر عبر عدة مراحل.

وقد استخدم "لوكيه" مصطلح واقعية المصادفة، للإشارة إلى حقيقة "الخربشة" التي يتم اكتشاف معناها أثناء القيام بها. أما المرحلة الثانية فهي الواقعية الباهتة أو العجز التركيبي حيث تكون عناصر الرسوم غير مترابطة وغير منسقة ككل. وتأتي بعد ذلك مرحلة الواقعية الفكرية، عندما يتطور الرسم إلى مرحلة ما بعد الخربشة، حيث يحمل المواصفات الإدراكية للنموذج، ولكن بدون الاهتمام بالبعد البصري. فعلى سبيل المثال، فإن وجهاً في الصورة سوف يحمل عيناً ثانية، لأن الوجه يحمل عينين. ولا تحدث المرحلة النهائية من الواقعية البصرية إلا في حوالي السنة الثامنة أو التاسعة من العمر، وهناك يمثل الرسم فقط ما هو ظاهر من زاوية واحدة. مثل صورة وجه بعين واحدة. كما أن الأشياء في الرسم يتم ترتيبها حسب خطة وحسب التناسب المكاني.

ويقول باحث آخر "برونر" -وهو باحث أمريكي أعد دراسة عام ١٩٦٦ حول النمو الإدراكي- إن الطفل يمر عبر مراحل تتميز بإطار منفصل يتم التواصل من خلاله، يبدأ الأطفال أولاً بتمثيل العالم من خلال الأفعال، ومن خلال المعرفة التي اكتسبوها عبر التجارب السلوكية، وهذا ما يسمى بالشكل التمثيلي. أما الشكل الثاني فإنه يشمل بناء صور ذهنية لأشياء خبرها الطفل. وفي هذا

الشكل يظهر اهتمام الطفل بالصور والأيقونات فيكتسب الرسم أهمية. وفي هذه المرحلة لا يكون الشكل الثالث قد تطور إلى مستوى متقدم، ولذلك يجد الطفل في التشبيه الأيقوني أفضل طريقة لرسم عالمه، وهذا ما يسمى بالشكل الأيقوني. وفي الشكل الرمزي تدخل اللغة كمؤثر على الأفكار، وهنا يتحرر الطفل من المحيط المباشر، ويختار المعلومة المتوفرة. إن الأطفال الذين تعرضوا للصدمة، ربما لا يملكون المفردات أو الاستعداد لبحث ما مروا به مع الكبار، فالأطفال الصغار من عمر ٤-٥ سنوات، والأكبر سناً من عمر ١٣-١٤ سنة يفضلون الرسم للتعبير عن مشاعرهم، وبخاصة ما يتعلق منها بأحداث الصدمة، وحتى لو أن الأطفال لم يمروا بتجربة الصدمة مباشرة، إلا أن غالبية الأطفال الفلسطينيين ما زالوا يعيشون في ظروف ضاغطة للغاية، نظراً لظروف الفقر وقلق الآباء والتهديد الدائم بالأخطار.

ولذلك فإن الاهتمام في هذه الدراسة يتركز على محتوى رسومات الأطفال الفلسطينيين، وسوف يتضح بشكل مخيف لاحقاً، أنه على الرغم من أن بساطة الرسم تجعلك تعرف أن الرسام هو طفل، إلا أن المضمون يحكي قصة أخرى. منذ النظرة الأولى يمكن أن تمر على هذه الرسومات بسرعة وتقول أنها "خربشات طفل" في وقت فراغ، ولكن بعد تفحصها يتم اكتشاف حقيقة مقلقة، وهي أن الطفل لم يكن يرسم خربشات عبثية، وإنما كان يضع على الورق صوراً وأفكاراً تملأ رأسه.

والجانب الأكثر أهمية في رسومات الطفل التي لم تحظ بالاهتمام الكافي، هو الجانب الرمزي والنظرة إلى العالم. فمن خلال الرسم ربما لا يعبر الطفل عن نفسه الحقيقية فقط، وإنما أيضاً عن نفسه المتخيلة أو الخائفة أو التهديد الذي يراه في الآخرين. وعندما ننظر إلى رسومات أطفال مروا بصدمة ما، فمن الضروري قراءة ما بين السطور، وعدم الاكتفاء بالنظر إلى المضمون الواضح، وإنما البحث عن الشيء الناقص فيه. إذ يمكن أن يتأثر مضمون الرسوم إلى درجة كبيرة بمحيط الطفل، وبخاصة الأطفال الصغار، وهناك طرق كثيرة لقراءة رسومات الأطفال، فاختبارات الرسم يمكن أن تستخدم كاختبارات

ذكاء على أساس أن الرسم الحر يعكس أفكار صاحبه. وقد أعدت الباحثة النفسية "غودينوف" -عام ١٩٣٣ دراسة حول رسومات الأطفال باعتبارها اختباراً نفسياً- اختبار "ارسم رجلاً" بدعوى أن عدداً من العناصر المشكلة يمكن اعتبارها مقياساً لذكاء الطفل، لكن التركيز كان على عدد الأجزاء وليس على النوعية، إلا أنها لاحظت فائدة الرسم كتعبير عن الشخصية، وأقرت أن الأطفال يرسمون ما يعرفونه وليس ما يرونه. أما أسلوب الخربشة، الذي اعتمده "وينيكوت" -وهو باحث أمريكي أعد دراسة حول دور اللعب كوسيلة علاجية للأطفال، الذين يعيشون في أزمة تم نشرها عام ١٩٧١- فإنه يتضمن رسم صور من خلال الخربشة، وهو أسلوب قد يستخدم مع الأطفال، الذين يقولون أنهم لا يستطيعون الرسم، كما أنه طريقة للتغلب على التردد. وبناءً على هذا الأسلوب يقوم المعالج بعمل خربشة ثم يطلب من الطفل أن يصنع صورة منها. ثم يجري تبادل أدوار، حيث يقوم الطفل بالخربشة ومن بعده يقوم المعالج، وهذا أسلوب اظهاري، فبعد أن ينتهي الطفل يتم الطلب منه أن يختار الخربشة المفضلة وأن يحكي قصة عنها.

الفصل الرابع

رسومات الأطفال في فلسطين

****

لقد تم إجراء دراسات كثيرة في الماضي لتقييم مؤشرات العواطف" ونموها في رسومات الأطفال" إذ أدخل بيرنز عام ١٩٨٢ تعديلات على طريقة "ارسم عائلة" من خلال إضافة البعد الحركي لها، فيطلب من الطفل أن يرسم كل أفراد العائلة وهم يقومون بفعل ما، وهذا يحمل معه كثيراً من المعلومات، فعلى سبيل المثال، يمكن للمعالج النفسي أن يستشف علاقة الطفل بأفراد عائلته من خلال الرسوم. ويقول كوبيتز -في دراسة أعدها عام ١٩٦٨ حول رسومات الأطفال: استغلال وإساءة معاملة الأطفال- أن رسم الأشكال البشرية يعمل كمؤشر حساس لعلم الأمراض النفسية، وكعاكس لتشوهات صورة الجسد، ولمواقف وأفكار الطفل عن نفسه أو للإهتمام بالجنس ووظائف الجسد. والرسم يسمح للطفل بالتعبير وخلق أي شيء يريده، فالعلاقات التي يرسمها على الورقة يمكن أن تحتل أشياء أو مواقف حقيقية، أو ربما تكون عملاً خلاقاً من خيالهم، فعلى عكس الكبار، يتحمل الأطفال مسؤوليات محدودة، وحاجتهم للإستعداد لحياة النضوج من خلال الحياة الرمزية في اللعب وفنتازيا التعبير الفني تعبر عن نفسها بسهولة (كريمر والمان/ كتيب الصحة النفسية المدرسية عام ١٩٨٢). في الماضي لم يكن الجانب الإسقاطي للرسم مستحباً، وحتى عندما تم إستخدامه في الممارسة العلاجية، تعرض إلى الإنتقاد بسبب طبيعة الشخصية والنتائج البحثية السلبية. ويصعب في بعض الأحيان التفريق بين الصور من ناحية الحقيقة، أي إذا كان الطفل يفسر في رسومه شيئاً قد وقع فعلاً أو أنه يحّور حدثاً فيضع له نهاية سعيدة، أو يضع حلاً مقبولاً لشيء مقلق جداً، كانت نتيجته مؤلمة.

ويبدو أن الفن يملك قوة نادرة لحشد الطاقة لشكل من التعبير يقوي من نمو الشخصية و تماسكها، ويمكن إستخدام الفن كعلاج لتقوية شخصية الطفل وتهذيبها. ويمكن تركيزها في مواجهة التنفيس الفوضوي في جانب، وفي تشكيل آليات الدفاع الصلبة في الجانب الآخر.

ويكمن الجوهر في العمل الإبداعي نفسه، وتقوم فوائده على أن للفن قدرة على تحويل أشكال الطفل البدائية في التعبير إلى إبداع. وأن قوة الدفع المبددة على الخيال أو اللعب، أو الحبيسة في حلقة مفرغة لسلوك عرضي متكرر يمكن حشدها لصنع أشياء إسقاطية تعمل كمرادفات للتطور الحياتي. وعندما يرسم الأطفال فإنهم يبنون جسراً بين عالمهم الداخلي وبين العالم من حولهم. وتساهم هذه التجارب في تشكيل شخصية غنية وأكثر مرونة.

ما هي قدرة الفن العلاجية؟

يوجد في الفن دائماً بعض أشكال مواجهة الذات، وأي عمل فني يوحي بالمواجهة مع أحد جوانب شخصية الفنان، والفن يشكل عالماً يتمحور حول الذات. ويجري العمل على تخفيف خطر مواجهة الذات وأمراضها من خلال الرضا النرجسي الذي توفره عملية الإبداع عبر تجسيد عالم مصغر من صنع خيال صانعه (كريمر والمان ١٩٨٢). ومن خلال العمل الإبداعي للفنان تجري مساعدة الذات على التعامل مع عالم مادي مثقل، ليس من خلال الكتب أو وسائل الدفاع البدائية، وإنما من خلال تعبير مجسم هو ثمرة عملية التهذيب. فيما يتعلق بإستخدام الفن لأغراض التشخيص، فهناك من يعتقد بأن العلاج الفني يمكن إستخدامه لتفسير أداء الفرد، وهناك شواهد على أن مؤشرات تشخيص مهمة يمكن إكتشافها من خلال التعبير الفني قبل تحديدها بعمليات فحص تقليدية، ذلك أن حرية الفن تربطها بالتمثيل المتخيل، فكل منها تشكل جزيرة يتعطل فيها عنصر الحقيقة جزئياً. إنّ الأمنيات والمشاعر المكبوتة يمكن التعبير عنها بشكل إسقاطي. وهناك نقطة هامة تتعلق بالأطفال الفلسطينيين وهي أن الرسم يسمح بإستيعاب التجارب المؤلمة والمخيفة، التي يجري تحملها

بشكل سلبي. من خلال تفريغها بفاعلية أكبر على مستوى منخفض، ويمكن تفريغ الآثار السلبية من خلال اللعب والفن، فعندما يحاول الأطفال أن يعطوا لأفكارهم قيمة أكبر مما يعطون اللعب، فسوف تظهر نتائج محاولاتهم، ليس فقط عبر أفكارهم وخيالاتهم وإنما أيضاً من خلال قدرتهم على إعطائها شكلاً. والنتاج المتشكل لا يمثل أبداً الخيال نفسه، وإنما علاقة الطفل بالخيال، وعندما تتشكل المادة الفنية بدون الإلتزام بأنماط محددة، لا يمكن وقفها من خلال أخذ صورة صانعها، فرسم الخطوط بقلم الرصاص يفصح عن المشاعر المكبوتة، وعن الرواية القصصية التي قد تكون حقيقية أو مغرقة في الخيال. أما الرسم بالطلاء فيحفز العواطف والانطباع والشكل. وهذا ما قد يؤدي إلى تفكيك القيود وإلى إغراق الروح بالعاطفة المجردة أو كليهما. كما أن الألوان ونوع القلم المستخدم قد يكشفان أيضاً عن مزاج الطفل. ويعتقد الباحث الفرنسي تراوبي – في دراسة أجراها عام ١٩٣٧ حول الصعوبات النفسية وتشخيصها من خلال الرسم– أن المزاج السيىء يعكس نفسه في إستخدام اللون الأحمر، بينما يجري التعبير عن الإكتئاب من خلال اللون البُنّي أو اللون البنفسجي. ربما تكون هذه الخيارات مهمة فقط في الحالات الحادة، إذ لا أعتقد بأن هذا التفريق المتطرف يجب تطبيقه على كل الرسومات. إلا أن ربطها بعوامل أخرى قد يساعد في الإلمام بالمزاج العام للصورة. هناك مدرستان فكريتان تتعلقان بإستخدام الرسوم كوسيط تشخيصي، فإحداهما تعتقد أن الرسومات يمكن أن تكون مفيدة في الأساليب الإسقاطية عندما يتم إستخدامها مع التخمينات الأخرى، بينما تعتقد المدرسة الأخرى بأن الرسومات غير موثوقة وغير مفيدة مع المرضى، ويأتي الدليل السلبي من خلال الإختبارات التي تم فيها الطلب من "الأطفال الطبيعيين" و "المضطربين عاطفياً" القيام بالرسم، ومن ثم خضعت هذه الرسوم للتقييم من قبل حكام مستقلين، وهذه العملية تحط من قيمة الرسومات التي من المفروض أن تكون مبهمة وغير منظمة. وفي هذا المجال، إستنتج فولك –في دراسة تحليلية أجراها عام ١٩٨١ حول فهم رسومات الأطفال– أن تشخيص الإضطرابات العاطفية على أساس إختبار (ارسم شخصاً) لم تعد متبعة، إلا أنه وجد أبحاثاً أخرى تقر بفاعليتها. وقد عزا النقص في إختبارات الفاعلية إلى إنعدام الوعي

بعوامل أخرى ضرورية لإستخدام رسم الصور كوسيلة تشخيصية. وفي ذلك يقول:" ان المهمة التي تتطلب تصنيف السلوك الظاهر أو التنبؤ به بناءاً على إستجابات منعزلة تتناقض مع الغرض الأساسي لأي أسلوب إستقصائي. وتسمح الرسومات بتركيز أكبر على فهم الفرد وتفسير الرمزية، التي غالباً ما تكون معلومة كامنة. وهذه الجوانب لا تتم معالجتها بشكل كاف من خلال قرار الحكم على رسمة واحدة، إذ يجب ألا يجري التشخيص على هذا النحو، لأن الفكرة الأساسية هي كيفية المساعدة في فهم التمثيل الخفي أو الحركة غير الظاهرة، وهذا ما يجعل من الضروري ربط الرسم وأشكال الفن مع تقييمات أخرى، وقد تم إستخدام السهم كأداة للبحث في فهم صداقات الأطفال(بنتو وبومبي وكورد يولي، دراسة بعنوان الرسومات كوسيلة لتحقيق التقارب الحضاري وتعزيز الصداقات بين الأطفال- عام ١٩٩٧). لقد ذكر الباحثون أن دراستهم أظهرت فائدة الرسوم في إستكشاف أفكار الأطفال حول الصداقة في مختلف الثقافات، فرسم الطفل لنفسه مع صديق يظهر قناعات الأطفال والتباينات في مظاهر معينة كثيرة ترتبط. بدرجة أكبر أو أقل، بالمواصفات الثقافية.

وإستخدم غاردينر – في دراسة مقارنة بين الثقافات من خلال العدائية التي تظهر في رسومات الأطفال عام (١٩٦٠)- الرسم لقياس العدوانية مع ست وعشرين مجموعة ثقافية قامت بالرسم بناءاً على إعتبارات محددة مثل "وجود الأسلحة وصور الصناديق ومصارعين أو جنود ووفيات وإشارات معينة، غالباً ما ترتبط برعاة البقر والشخصيات العسكرية".

لقد استنتج الباحث أنه بسبب الضغط الإجتماعي والنفسي الكبير بين الأطفال التايلانديين نتيجة للتشديد المبكر على الحاجة لعلاقات فردية متداخلة ومنسجمة، وكذلك الخطر المفروض على التعبير عن المشاعر المتطرفة (العدوانية) كان عدد الرسومات التي تصور العداوات أكبر بين هذه المجموعة. إنّ هذا الأمر يعني إسقاطاً من كثير من الأطفال لعواطف يشعرون بها، لكنهم لا يعبرون عنها عادة. وجاءت النتيجة متفقة مع هذه الفرضية حيث أن ٣٥% من رسومات الأطفال أظهرت بعض أشكال العدوانية، وتبعتهم المجموعة الألمانية

(٢٦%) والتايوانية (٢٥%) واليوغوسلافية (١٧%) والجزائرية (١٥%). ويكتسب إسقاط المشاعر المكبوتة على الرسومات أهمية عند البحث في وضع الأطفال الفلسطينيين، ففي شوارع مخيماتهم يعتزون بشجاعتهم، ويشعرون بالحاجة للتصرف كجنود أبطال وأقوياء، ومع ذلك فإن الأطفال الفلسطينيين هم في النهاية أطفال تنتابهم المخاوف ومشاعر القلق كباقي أطفال الدنيا، ولذلك فإن الرسم يوفر لهم فرصة للتنفيس عن تجاربهم، وأن يضعوا على الورق غضبهم واحباطاتهم وأحلامهم.

ويسمح هذا النشاط للأطفال بالاعتراف بتجاربهم وشحنها بالعواطف التي لا يقدرون على التعبير عنها بالكلام أو الفعل مع أطفال آخرين. وغالباً ما تكون عائلات الأطفال الفلسطينيين تحت ضغط كبير، نتيجة لبطالة الأب وانعدام المصادر الضرورية. إضافة إلى ضغط العيش في مخيم لاجئين تحت الاحتلال. وخشية أن يتسببوا في ازدياد قلق الآباء، ويحجم الأطفال عن التعبير عن مشاعرهم لوالديهم. يضاف إلى ذلك انشغال الآباء بأطفال آخرين أو بأعمال أخرى، مما لا يوفر للأطفال فرصة استماع الوالدين لهم حتى لو أرادوا ذلك.

ما الذي يمكن أن نلتقطه من رسومات الأطفال؟

لقد جرت دراسات كثيرة حول الوظيفة السيكولوجية للرسوم ركزت على حجم الرسومات و ارتباطها بالعوامل الوجدانية. وذكر الباحثان البريطانيان "فوكس وتوماس" -في دراسة لهما عام ١٩٩١حول اختلاف مغزى موضوعات رسومات الأطفال من خلال حجم اللوحة- أن الأطفال الذين يخافون من الساحرات، رسموا ساحرات صغيرات الحجم ونساء كبيرات الحجم قبل يوم من عيد "الهالوين" مقارنة برسومات نفذوها قبل أسبوع وكذلك بعد أسبوع منه. ويقول الباحثان أن استنتاجاتهما جاءت متفقة مع فكرة أن الرسومات حول الموضوعات المثيرة للقلق تأخذ شكلاً مصغراً مقارنة بالرسومات حول الموضوعات غير المثيرة للقلق، والسبب في تكبير صورة المرأة ربما يعود إلى أن القلق المرتبط بالساحرة يحفز أهمية وجود شخصية غير مثيرة للقلق

"المرأة" التي تعطي الأمان والطمأنينة مقارنة بالساحرة. وهذا استنتاج مهم لأن الافتراض العام في التقييم المخبري للرسومات يقول بأن الأشكال أو الملامح الأساسية غالباً ما تكون بصورة تغلب عليها المبالغة.

وفي بحث مماثل لتوماس وشاني وفوكس عام ١٩٨٩، تبين أن الأطفال رسموا الرجل الطيب أكبر حجماً من الرجل الشرير. وهذه النتيجة تدعم الفرضية القائلة بأن رسم الموضوعات المخيفة يكون أصغر حجماً ولكن موضوعها لا يحمل تهديداً.

إلا أن هناك شواهد كثيرة تشير إلى عكس ذلك، فقد ذكر"جوينر" وآخرون - في دراسة تم نشرها عام ١٩٩٦ حول تفاصيل الخطوط في رسومات الأطفال كوسيلة لكشف الألم النفسي أو العاطفي- أن الحجم والتفاصيل وكثافة الخط، وهي الأبعاد الثلاثة المستخدمة غالباً كمؤشرات على الاضطراب النفسي في رسومات الأطفال، لا علاقة لها بالمقاييس الاسقاطية للاكتئاب والقلق. ويقول "سميث و أبلفيلد" -في دراسة تم نشرها عام ١٩٦٥ بعنوان رسومات الأطفال كوسيلة يستشف منها شخصية الطفل- (هناك قبول لوجهة النظر القائلة بأن الطفل يسقط شخصيته على رسوماته، رغم غياب الدليل التجريبي المقنع). وقد وجدا أن عشرة حكام "باستثناء واحد" من الذين فحصوا رسومات اثنين وعشرين ولداً وبنتاً من عمر ٣-٥ سنوات، التحق أحد عشر منهم بمدرسة للأطفال المضطربين عاطفياً، واستطاعوا أن يحكموا على أن الرسمة كانت لطفل مضطرب أو طبيعي، كما استطاعوا مقارنة إحدى عشرة رسمة لأطفال مضطربين بوصف مختصر لشخصية كل منهم. ويعتقد "الباحثان" أن نوعاً من عملية التخمين المبهمة تفسر هذه النتيجة. لقد حاولت الدراسات المتعلقة بالرسومات تحديد كثير من المؤشرات للمتغيرات السيكولوجية المختلفة، ومن هذه المؤشرات: التسلل والضغط والضربة والتفاصيل والتناسق وتحديد المكان واستخدام اللون. وقد أراد "مارتين" -في دراسته المنشورة في مجلة علم النفس التطوري عام ١٩٥٥- معرفة ما إذا كان الأطفال يعبرون عن الأمان أو عدمه في رسوماتهم، وما إذا كان بالإمكان قياس أو وصف التعبير التصويري، وما

إذا كان بالإمكان التمييز بين رسومات الأطفال الآمنين و غير الآمنين. وقام بتحليل الرسومات بناءاً على نظام "وولف"، الذي يقول بان مواصفات رسومات معينة هي تعبير عن شعور الطفل بالأمن من عدمه، وهذه الميزات توجد في الرسمة كمجموع: التناسق وتحديد الضربات واستمراريتها ودرجة تركيز العناصر فيها. كما أن الملامح الشخصية في الرسمة مهمة أيضاً ومنها: التناسق ووحدة وبروز الملامح ووضوح موقع الملامح الطبيعية والحيوية ودرجة الاتساع. لقد أظهرت نتائج تحليل مارتين وجود فارق واحد بين رسومات الأطفال الآمنين والخائفين، يتمثل في اتساع الأشكال البشرية، لكن هذا الفارق كان في الاتجاه المغاير، أي أن الاتساع كان في لوحات الأطفال الخائفين أكبر مما هو في لوحات الأطفال الآمنين. ومع أن الأطفال يمكن أن يعبروا عن مشاعرهم من خلال الرسم، إلا أنهم لا يستطيعون التعبير عنها كلامياً أو بأي شكل آخر، لأن ذلك يستثير قلقهم وترفضه شخصيتهم، وتسمح طريقة الرسم غير المباشرة، للطفل بالكشف عن المعلومات غير المقبولة على المستوى الكلامي أو الواعي، ومن خلال الرسم يمكن للطفل أن يكشف عن مواقف باطنية سلبية..إلخ من خلال تغيير نوعية الخط وإخفاء الأشكال واستخدام علامات وإشارات قد لا يكون واعياً لها، والفن عبارة عن عملية يمكن من خلالها ترجمة المشاعر والأفكار والسلوك والعلاقة بالآخرين إلى صور مادية. وربما يكون ذلك أحد أهم العوامل في عملية الفهم والعلاج لضحايا الصدمة. يعتقد "بورغيس" –في دراسته عام ١٩٩٣ بعنوان رسومات الأطفال: الإساءة والإهمال الموجه للطفل– أن الرسم يساعد على استرجاع التجربة بشكل حركي وبصري وسمعي، ويعتقد بأن الرسم يعطي تعبيراً للتفريغ الحركي الحسي لأن الأشياء في الصورة تساعد على التذكر، حيث أن الأبعاد المعرفية تأخذ شكل التنظيم، وأنماط العلاقات البشرية والشرح الشفهي للصورة. ويعتقد "بورغيس وهارتمان عام ١٩٩٣" أن رسومات الأطفال مفيدة كأداة مساعدة في كشف الذكريات المؤلمة، حيث أنها تعبر عن طريقة تقديم تجاربهم لأنفسهم وللآخرين. وهي تعكس البناء الإدراكي من خلال تنظيم الرسم واختيار المضمون والعلاقات بين الشخوص والأشياء والأفكار، ويمكن فهم العاطفة على أنها استرجاع

للتجارب البدنية والصور والأصوات. فعلى سبيل المثال فإن الإنسان لا يستطيع التعبير عن عاطفة الحزن شفهياً، ولكن من خلال جمع حالات الجسد المختلفة من توتر وإثارة وتأمل. وهذه النقطة تختلف عن فكرة "بيايجه وأندهلدر" اللذين اعتبرا اللغة أعلى نظام لجمع المعلومات، وافترضا أن المرحلة الأولى في تفسير المعلومات عند الأفراد الأكثر نمواً هي مرحلة اللغة، ويتلخص موقف "بورغيس" في أن المعلومة تصبح غير مشفرة ثم يجري تخزينها وتنظيمها على مستوى حسي، ثم ان تصنيفها يتأثر بقدرات معرفية عالية. ويفترض الباحثان أن الشيء ذاته صحيح فيما يتعلق بالتجسيد البصري لأحداث ماضية ولاحقة. وقد اهتم الباحثان بشكل خاص باستخدام الرسومات المتعلقة بضحايا التحرش الجنسي واستنتج بورغيس "١٩٨٨" أن مؤشرات الصورة من المجموعات التي تضم ضحايا الإساءة قدمت مقارنة واضحة بين صورة الحاضر وصورة الماضي، مما يعني أن الاستشارة النفسية صححت الشعور الذاتي بالعطب. ويصف (ستمبر) عام ١٩٨٠–في دراسة مشابهة لدراسة بورغس السابقة– ان فنتازيا الرسم يمكن أن تخفف من حادث الصدمة إذ تعمل كمنقذ للشفاء والنمو، وبهذه الطريقة يعمل الفن كواسطة لترابط العواطف والتعبير عنها. وفي أبحاث الصدمة، تم استخدام الرسم في الجلسات العلاجية كوسيلة اتصال مع مرضى الأورام. وبالنسبة لموضوع "دراستنا" حول رسوم الأطفال تبين للباحثين أن الرسوم تحفز الطفل على الحديث عن معلومات خطيرة وتجارب مريرة، وهي تساعد في الإضاءة على تشتت الذاكرة وعدم الترابط بين الطفل وفهمه لما حدث له.

وغالباً ما يمثل الطفل التجربة المباشرة، وهذا شيء مهم في تذكر أحداث الصدمة، وفي أغراض التقييم والتشخيص، ويصبح قاعدة معلومات أساسية يجب التعامل معها قبل حدوث الشفاء. وفيما يتعلق بالصدمة الناجمة عن العنف السياسي، لا يبدو أن أبحاثاً كثيرة قد تمت على رسوم الأطفال، ففي عام ١٩٤٣ عندما بدأت أمريكا المشاركة في الحرب، سعت "هلدريث" –في دراسة لها بعنوان: موضوعات الحرب في رسومات الأطفال، التعليم في مرحلة الطفولة– لدراسة آثارها على الأطفال، وقد وجدت أن الرسم التلقائي يعكس أمنيات الطفل

واهتمامه وتجربة اللعب وقلقه اليومي. وقد يعبر الأطفال عن قلقهم في رسومهم بشكل غير مباشر، فيسقطون هواجسهم الدفينة عن الحرب على رسوماتهم. وقد قامت هلدريث بمقارنة رسوم الأطفال قبل الحرب وبعدها، واستنتجت وجود دلائل للحرب في رسوماتهم، ووجدت أيضاً ميل الأولاد إلى موضوعات الحرب أكثر من البنات، فالبنات يلجأن إلى كبت أي اهتمام بالحرب، فكلما كان البرنامج يوفر فرصة للتعبير عن الذات وإطلاق الطاقات والتسلية والإثارة واشباع الرغبات البدائية، كلما كان ميلهن تجاه لعبة الحرب أقل بروزاً. وفي الواقع فإن عملية العلاج من خلال الرسم لم يتم فهمها بشكل جيد، فمن المفترض أنها توفر طريقة مباشرة لمساعدة الأطفال على التعبير عن التجارب التي مروا بها دون أن يضطروا للحديث عنها، وهذا يريحهم من معاناة عيش التجربة مرة أخرى ومن استعادة التجربة في الخيال فقط. وهناك فائدة عملية للرسم إذ لا تستغرق وقتاً طويلاً و لا تحتاج أموالاً، فالعلاج بالرسم يمكن استخدامه في المدارس والبيوت بشكل فردي أو جماعي، ويمكن تخزين الرسوم على الورق ليدرسها الاخصائيون. ونظراً لاتساع نطاق العنف الذي يتعرض له الأطفال الفلسطينيون، فإنه يستحيل تقديم المساعدة العلاجية لهم جميعاً. وكل من يعيش في المناطق المحتلة يعاني من الصدمة بدرجة أو بأخرى، إذ يجب الالتفات إلى أهمية مسألة التقاليد والثقافة الشعبية تجاه مشكلات الصحة العقلية، ويميل بعض الفلسطينيين والعرب عموماً إلى اعتبار المرض العقلي ضرباً من السحر ومن قوى خارجة عن الادراك البشري، ولهذا فمن المهم الاتصال بالعائلة لشرح مسألة ورشات الرسم العلاجية.

الدراسة التجريبية

لقد قمت في الدراسة بالتطبيق على رسومات الأطفال الفلسطينيين التي جمعها اتحاد لجان المرأة للعمل التطوعي في بيت لحم، ومركز الاستشارات السيكو-اجتماعية للنساء، وشملت ٤٩ رسمة لأطفال من الصف الثالث إلى الثامن، ومن أعمار ٨-١٤ سنة ومن عمر متساوٍ من الجنسين، تعود إلى الفترة من ٢٠٠٠-٢٠٠١، ولذلك فإن معظم المضمون يتعلق بانتفاضة

الأقصى. وقد اختار بعض الأطفال إرفاق بعض الرسومات بشروحات تعبر عن مشاعرهم. كما استعنْتُ بكتاب "شهود عيان أوفياء: أطفال فلسطينيون يعيدون تشكيل عالمهم" لكمال بلاطة المنشور عام ١٩٩٠، ولذلك فالرسومات تتعلق بالانتفاضة الأولى. هذان المصدران أتاحا لي المقارنة بين رسومات الأطفال في هاتين الفترتين، ومن ثم مقارنتها برسومات الأطفال الهنغاريين وقد تم اختيارها لأطفال في عمر ٨-١٣ عاماً في مدرسة في بودابست. وقد كان الموضوع المطلوب هو الحرب ورؤية السلام، وذلك لرصد أفكارهم ورصد المتغيرات التي يمكن أن تسود رسومهم لمقارنتها برسوم الأطفال الفلسطينيين، ولكشف الفروقات الجوهرية. ومع بداية تفحص رسومات الأطفال الفلسطينيين والهنغاريين شعرت بوجود بعض الاختلافات دون أن أتمكن من تحديدها. ثم ركزت البحث في أوجه الاختلافات، فكانت الصدمة بأن رسوم الأطفال الهنغاريين كانت أكثر دموية وبشاعة من رسومات الأطفال الفلسطينيين. وقد ظهر أن الحرب بالنسبة للأطفال الهنغاريين تعني الموت والوحشية والفوضى، بينما كانت فكرة الحرب أوسع لدى الأطفال الفلسطينيين.

كيف ينظر الأطفال للحرب؟

عندما تطلب من طفل أن يرسم عن الحرب، فمن المنطقي الافتراض بأنه يعرف معنى الكلمة. لكن عند المقارنة يتضح أن الفكرة لدى الأطفال مختلفة، وقد ضمت معظم رسوم الأطفال الهنغاريين موضوعاً مشتركاً يدور حول الدمار وآلة الحرب (الدبابات والطائرات الحربية والطائرات المروحية والجنود المدججين بالسلاح والأشخاص المصابين) ويمكن وصف ذلك بمشهد حرب نموذجي، يذكّر بالحرب العالمية الثانية، كما رسم عدد كبير من الأطفال الهنغاريين (السواستيكا-الصليب المعقوف) إشارة للحكم النازي، ومع أنه لم يقم جميعهم برسم هذه المشاهد إلا أن الذين رسموها يثبتون أن صورة الماضي هي التي تقفز إلى الأذهان، ومن رسومهم أيضاً معارك بالمدافع "١٦%" وخيالة "٨%" كما رسم أحد الأطفال جنوداً بلباس هنغاري إلى جانب حصان، ورسم آخر رجلاً وامرأتين بلباس هنغاري تقليدي، وربما بنوا هذه الأفكار على أساس أن

الحرب تعني الارتباط بالبلد والثقافة الشعبية.

تختلف بعض رسومات الأطفال حسب نظرتهم إلى الحرب كفعل أو كفكرة. والحرب بحد ذاتها متفرعة عنها، ولذلك يختلف تناول الأطفال لها، فمنهم من يرسم القتال وساحات الحرب ومنهم من يهتم بأحداث على مستوى أدنى كمهاجمة المدنيين. وتبين أن الأطفال الفلسطينيين يحملون أفكاراً مختلفة عن الحرب، كما اختلفت طريقة رسمهم لها، فبعضهم تناول الطائرات والدبابات مثل الأطفال الهنغاريين، لكن معظم رسومهم اتسمت بطبيعة مختلفة وذلك في محاولة منهم لتوضيح الطبيعة الخاصة لحربهم.

وقد أظهرت معظم الرسومات الأطفال الفلسطينيين وهم يلقون الحجارة ويستخدمون المقاليع، بينما كان الجنود الإسرائيليون يطلقون النار عليهم، ويبدو أن الأطفال الفلسطينيين يربطون حياتهم بالانتفاضة، حيث اندمجت نشاطاتهم اليومية بالحرب، مثل الصدامات في الشوارع وفحص الوثائق عند حواجز التفتيش، وتحمل رسومات الأطفال الفلسطينيين طبيعة خاصة مقارنة بالأطفال الهنغاريين الذين اتسمت رسومهم بأنها "شبه سينمائية".

من الذي يظهر في الصورة؟.

الضحية في رسوم الأطفال تشكل جانباً آخر مهماً حول كيفية نظرة الأطفال إلى الحرب، فأطفال الغرب يرون الحرب قتالاً بين الجنود، ومقارنة بين أطفال هنغاريا وأطفال فلسطين هناك اختلاف جذري، ففي حين يشهد ويعيش أطفال فلسطين الحرب بأنفسهم، يقتصر الأمر على الذكريات السماعية والمشاهدات عن الحرب بالنسبة لأطفال هنغاريا. وأطفال فلسطين في رسوماتهم يصورون أنفسهم، ولم تخل أية رسمة من صورة طفل بينما لم تظهر صورة لأي طفل في رسومات الهنغاريين، بل أظهرت الجنود يطلقون النار على جنود آخرين أو مدنيين كبار، وفي رسومات الأطفال الفلسطينيين بروز واضح للأسلحة، الحجارة والأعلام في مقابل البنادق والدبابات الإسرائيلية مع جهد كبير في إبراز تفاصيل زي الجنود ولباس الأطفال باستخدام كثير من الألوان وكثير من الخيال.

ولا يذهب الأطفال الهنغاريون في فكرتهم عن الحرب بأبعد من المفهوم الأساسي للمعركة، وإبراز بعض الأحداث المرتبطة بها كالقتل المنظم للأسرى، وتعذيب النساء والأطفال. أما الأطفال الفلسطينيون فقد أظهروا فهمهم لنتائج الحرب وعبروا عنها، فالاعتقال والتحقيق والمواجهات جزء من تجربة الحرب. ومع أن الأطفال الهنغاريين يعرفون هذه التفاصيل إلا أنهم لم يهتموا بها. والأطفال الفلسطينيون يتطرقون إليها لأنها حوادث مرعبة تمر بحياتهم اليومية. ومن المهم جداً معرفة من هو الذي يعتبره الأطفال عدواً؟

من السهل التعبير عن العدو من خلال الأعلام وتشابه الأشخاص وكذلك الأسلحة. وبهذا الخصوص يمكن إجراء عدة مقارنات بين الأطفال الفلسطينيين والهنغاريين، فأطفال هنغاريا يرسمون عادة جيشين متقابلين يطلقان القذائف والدبابات مع وجود أعلام كثيرة، لكن معظمها كانت ألمانية أو نازية، وهنا يظهر تأثير الحرب العالمية الثانية التي يعرفون عنها الكثير من خلال المدرسة والعائلة. لكن العدو لا يظهر في كل رسومات الأطفال الهنغاريين، إذ يميلون إلى التعميم فيرسمون أشخاصاً يتقاتلون، أو مشهد حرب عاماً يصعب فيه معرفة طرفي القتال بينما يحدد الأطفال الفلسطينيون عدوهم وهو دولة إسرائيل، ويظهر العَلَمان: الفلسطيني والإسرائيلي في كثير من رسوماتهم، وغالباً ما يكون العلم الإسرائيلي محترقاً، وعملية حرق العلم أمر مألوف للأطفال الفلسطينيين لأنهم يمارسونها بشكل متكرر، أما الأطفال الهنغاريون فهم لا يعرفون هذه الأشياء، ولذلك لم يظهر أي علم محترق في رسوماتهم.

أما الطابع العاطفي للرسومات فقد كان مختلفاً، ولكن في الاتجاه المعاكس، فقد افترضت أن الأطفال الفلسطينيين، بسبب رؤيتهم لكثير من مشاهد الحرب في مجتمعهم أو على التلفزيون، فسوف يرسمون مشاهد أكثر عنفاً، يضاف إلى الكم الكبير من حكايات الحرب التي سمعوها من أقاربهم وأصدقائهم مما يؤثر على فهمهم للحرب، وكذلك تجاربهم المباشرة فكثير منهم أصيب في المواجهات مع الجنود الإسرائيليين. لكن الأطفال الهنغاريين اهتموا أكثر بالتفاصيل البشعة،

مثل القتل والاصابات، وذلك على الرغم من أن رسومات الطرفين لم تخلُ من القتل والجروح. رسومات الأطفال الفلسطينيين كانت أكثر هدوءاً، لكن التعبيرات على الوجوه مبهمة بينما ظهر الألم والرعب على الوجوه في رسومات الأطفال الهنغاريين التي تهتم أيضاً بالتفاصيل، فالأطراف والرؤوس مبعثرة والدم يغطي المكان بينما يلجأ الأطفال الفلسطينيون إلى استخدام الدفاعات، فأذهانهم ملأى بالصور المرعبة ويجتاحهم الألم، إذا ما استرجعوها من الذاكرة، ولذلك فالضحية عندهم بلا حراك، ومشاهد الدم تتراجع إلى العقل الباطن، ولا يجدون ضرورة لجعل الرسمة حقيقية. ومع ذلك فإن رسوماتهم تظل أكثر هَوْلاً لكن الضحية لا تنزف وغالباً ما تبتسم مما يعني التناقض مع المضمون، كما أن الطبيعة الوجدانية لا تنسجم مع المحتوى الحقيقي للرسمة، وهذه قد تكون ظاهرة عامة، لأن الأطفال الهنغاريين رسموا ضحاياهم وهم يبتسمون. وربما لا يرغب الأطفال، أو أنهم ليسوا بقادرين على ربط العاطفة بالموت إلا عند عمر معين. وينصب التركيز في رسومات الأطفال الفلسطينيين على القضية الوطنية، والموت عندهم لا يرتبط بالضرورة بالحزن والألم، وقد جرى إعداد الأطفال الفلسطينيين للتركيز على الجوانب الإيجابية للانتفاضة مثل الوحدة والتلاحم بين الناس، ومشاركة الأطفال في المظاهرات والاحتجاجات، وهذا ما يفسر الظهور المتكرر لهذه المشاهد في الرسومات.

يمكن القول من وجهة نظر منطقية، أنه عندما تكون الحرب والعنف المرافق لها، حدثاً يومياً فمن غير المجدي التركيز على النتائج المأساوية والخسائر البشرية، لأن ذلك سيؤدي فقط إلى الإضرار بالصحة العقلية. وأعتقد بأن هذه النقطة تبدو واضحة في رسومات الأطفال الفلسطينيين التي تحتل قصة الطفل محمد الدرة مكانة كبيرة فيها والتي تظهره مبتسماً ولا يبدو مروعاً كما ظهر في المشاهد التلفزيونية. "الصورة التالية تحمل عنوان اغتيال محمد الدرة".

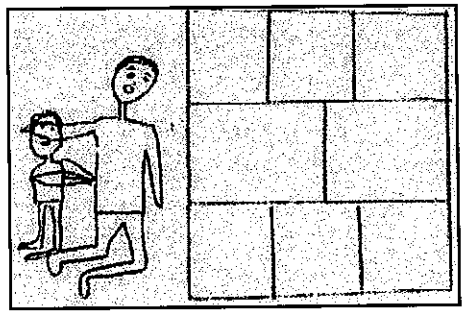

ويمكن التقاط أشياء كثيرة عند النظر إلى الرسوم بشكل متكامل وبعيداً عن التفاصيل، فالعوامل الخارجية مثل الطقس والمناظر والبنايات يمكن أن تظهر المزاج العام للصورة، ومن وجهة نظر سيكولوجية يمكن أن تفصح عن كثير من التناقض. فمن المعروف في أوساط الاخصائيين النفسيين، أن الأطفال يميلون في المراحل الأولى إلى رسم الشمس والبيوت، وقد مال الأطفال الهنغاريون لرسم الشمس في مشاهد الحرب أكثر مما فعل الأطفال الفلسطينيون، ومع أن بعض الأطفال الفلسطينيين رسموها في موضوعات الحرب، إلا أن أغلبهم رسمها مع موضوعات السلام والوطن. وأعتقد بأن لهذه المسألة تفسيرين، الأول: ربما أن موضوع الحرب ليس مثيراً للقلق بالنسبة للأطفال الهنغاريين، فهم لم يمروا بتجربة الحرب ولذلك لم ترتبط لديهم بأية عاطفة مهمة، وهذا يعني أن الشمس تظهر كخلفية لأي مشهد عادي. أما أطفال فلسطين فيربطون العاطفة بمشاهد الانتفاضة، وربما لا تظهر الشمس لديهم لأنهم منهمكون بتفاصيل أحداث الانتفاضة، ولذلك تتقلص أو تختفي الخلفية من الرسمة. أما التفسير الثاني فربما يعود إلى التعبير الوجداني في الرسم، فالأطفال الفلسطينيون يتوحدون مع رسوماتهم، والمشاهد التي يخلقونها ذاتية وحقيقية، وبالنتيجة يكون الطابع متفقاً مع الحدث، وقد تظهر الشمس قليلاً لأنها ترتبط بالسعادة والبهجة. ولكن هناك بعض الاستثناءات التي قد تخطر على البال، وهي أنه بسبب التجارب اليومية للأطفال، ولأن الأحداث التي تقع نتيجة للاحتلال والعنف العسكري تتكرر على الدوام، وفي الأيام المشمسة أيضاً، وإذا كان الطفل يرسم حدثاً وقع له شخصياً وفي يوم مشمس، فليس هناك ما يمنع من رسم الشمس، غير أنه لم تتوفر أية معلومة عما إذا كان الأطفال الفلسطينيون قد مروا بالأحداث الواردة في رسوماتهم، ولذلك فإن مسألة تضمين الشمس وعلاقتها بالجو العام للرسمة تتطلب بحثاً آخر.

وليست الشمس أو الطقس هما الخلفية الوحيدة المهمة، إذ يوجد حضور كثيف للمباني كما يشاهد في الأشكال التالية:

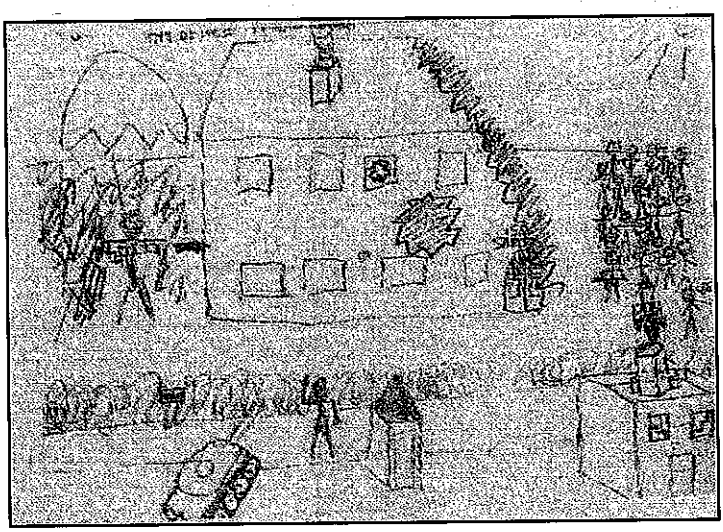

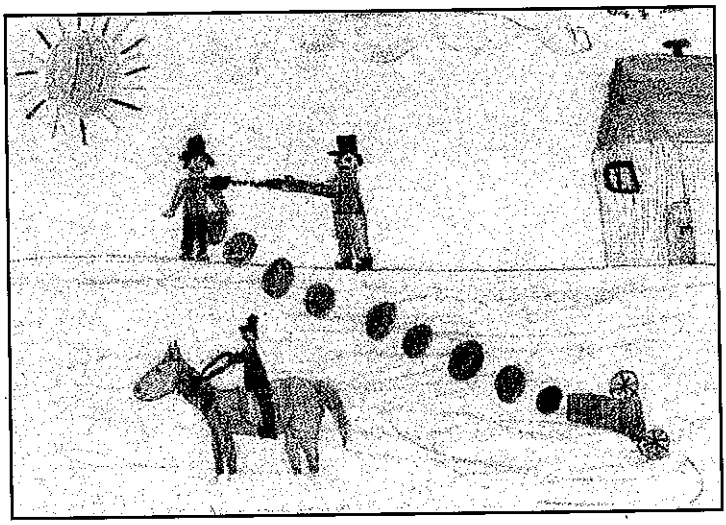

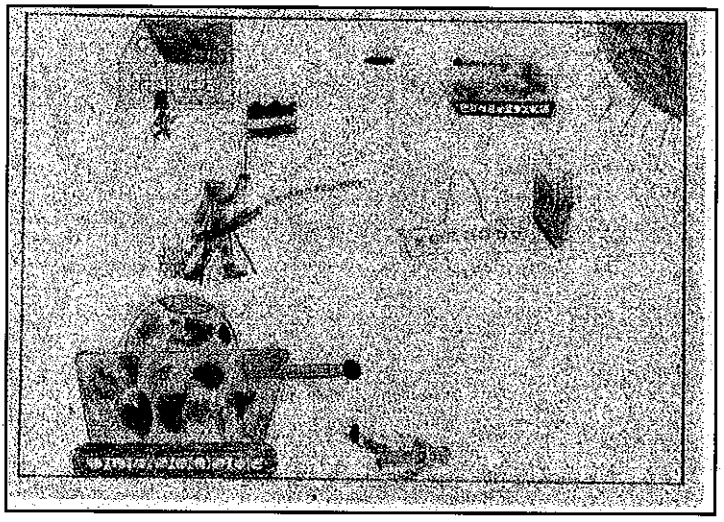

أما البيوت المنفردة فهي قليلة في رسومات الأطفال الفلسطينيين، وربما يرجع ذلك إلى أن معظمهم يعيشون في مخيمات أو مجمعات سكنية تظهر عادة كخلفية لمشاهد الصدامات مع الجيش الإسرائيلي. بينما تضم رسومات الأطفال الهنغاريين مساحة أكبر من الخلفية والمناظر من ضمنها الجبال والحقول الواسعة، وهو ما لا يظهر في رسوم الأطفال الفلسطينيين.

الفصل الخامس

رسوم الإنتفاضة الأولى والثانية

ورسومات الأطفال الهنغاريين

تجربة الانتفاضة وحضور الجنود والسلاح

تعبّر الرسومات عن أكثر الأشياء التي يألفها الإنسان، وفي هذه النقطة بالتحديد، تضمنت لوحات الأطفال الفلسطينيين تفاصيل أكثر عن السلاح وعن الآلة الحربية بالمقارنة مع لوحات نظرائهم الهنغاريين.

إن الدقة التي يرسم بها الطفل لوحاته تعتمد على المستوى الإدراكي، ومن الدراسات السابقة إتضح أن معظم الأطفال يعرفون التركيب الأساسي للدبابات والطائرات المقاتلة والعمودية. وهذا أمر لم يثر دهشة القائمين على تلك الدراسات، نظراً لأن الأطفال، وبخاصة الأولاد، يحبّون اللهو بالدمى والألعاب الخاصة بالحرب، يضاف إلى ذلك الخبرة التي يكتسبها الأطفال من مشاهدة الأفلام الحربية، ناهيك عن المشاهدة الحية والمباشرة لهذه الدبابات في الشوارع، حيث أصبحت جزءاً من المشاهد المألوفة التي يراها الأطفال، والتي جعلتهم يرسمون الكثير من الدبابات والطائرات بدقة بالغة. إلا أن الدراسة تشير إلى تميز رسومات أطفال فلسطين، إذ تظهر المعدات الحربية البرية في لوحاتهم بصورة أكبر من الرسومات التي تمثل المعدات الجوية العسكرية، حيث تظهر سيارات "الجيب" العسكرية والدبابات في تلك اللوحات، ولعل ذلك يعود إلى انخراط هؤلاء الأطفال في معارك برية يومية.

إن الفارق الكبير الذي لاحظته "شارلوت ستانفورث" بين رسومات الأطفال الفلسطينيين والأطفال الهنغاريين، يتمثل بأن رسومات المدافع والبنادق في لوحات الأطفال الفلسطينيين مرسومة بعناية كبيرة، وتحتل اللوحة بأكملها، في حين أن رسومات الأطفال الهنغاريين تُظهر المدافع والبنادق كجزء من اللوحة ولم تحتل كامل اللوحة. ويمكن لنا فهم هذا الوضع إذا ما تذكرنا أن الأطفال يشاهدون جنود الاحتلال يومياً وهم يجوبون الشوارع، ويضطر الكثير منهم إلى اجتياز الحواجز العسكرية.

كما تظهر بعض الكتابات المرافقة لهذه الرسومات، والتي توضح حضور البندقية كآلة حرب في العقل الفلسطيني، وهي غالباً السلاح الوحيد الذي يملكه المقاتلون الفلسطينيون. وتعتقد الباحثة "شارلوت" أن بروز البنادق في الرسومات هو أكثر ما يميزها عن رسومات الأطفال الهنغاريين. وهذه بعض الأمثلة التوضيحية:

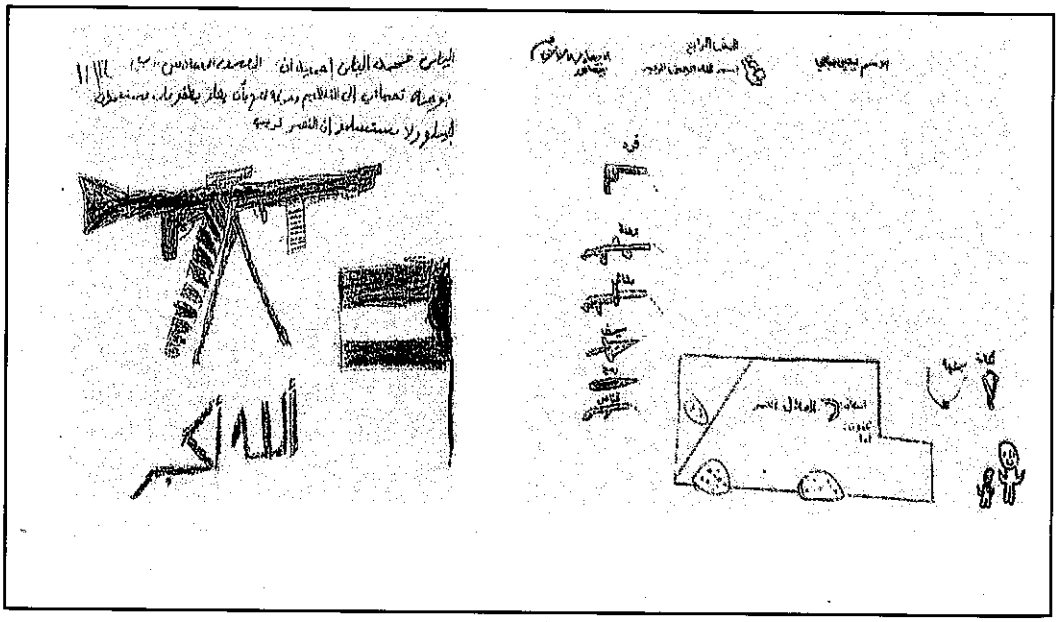

الرسومات السابقة تظهر كائنين صغيرين، من المفترض أنهما طفلان، في طرف اللوحة، ومن الملاحظ أنهما صغيران بالمقارنة مع الموضوع الرئيسي، وهو الأسلحة وسيارة الاسعاف. وما يقال عن حضور الأسلحة يمكن أن يقال أيضاً عن حضور الجنود. ويبدو أن الأطفال الفلسطينيين لم يعرفوا جنوداً آخرين سوى الإسرائيليين، ولذلك جاءت الرسومات مليئة بالألوان والتفاصيل، فالجنود يرتدون الزي نفسه دائماً ويحملون البنادق كما يظهر في اللوحات التالية

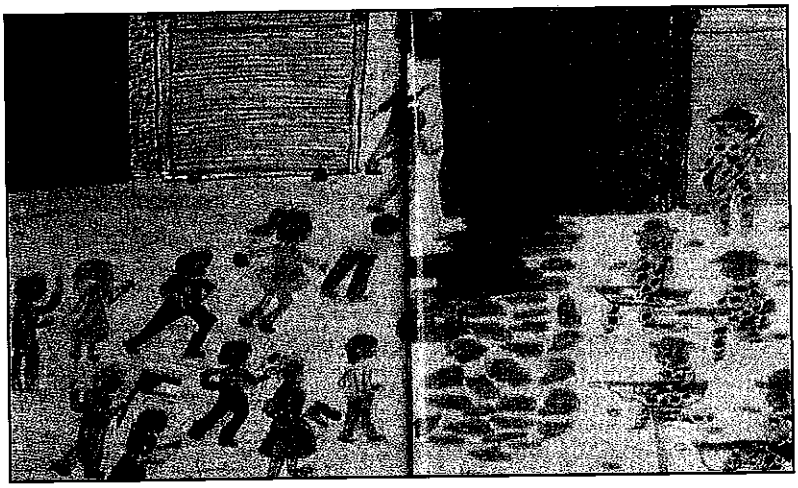

فلسطيني يجري إبعاده عن وطنه

إن الأمر المدهش هو استخدام الأطفال للألوان بصورة مفرطة في اللوحات التي تعبّر عن أبناء شعبهم، وهي إلى حد ما ألوان زاهية، ولعل هذا يمثّل روحهم المقاتلة أو قوة الإرادة التي يتمتعون بها، والشكل يوضح مشهد مظاهرة فلسطينية بينما يقوم جنود إسرائيليون بتوجيه البنادق إليهم.

رسمة توضح حاجزاً يفصل بين الطرفين

الإسرائيلي والفلسطيني وتوضح التناقض بينهما

وبالمقارنة بين أطفال فلسطين وهنغاريا، تبدو رسومات الهنغاريين مرتبطة بفكرة حرق المنازل ويظهر في الصورة التالية إطارات مشتعلة ضمن مشهد بيوت محترقة نتيجة للقصف أو نتيجة هجوم الدبابات.

رسمة طفل فلسطيني

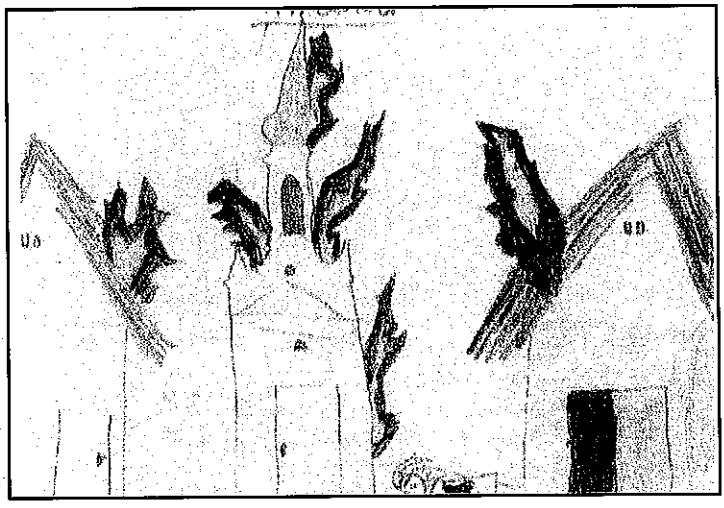

رسمة حرب لطفل هنغاري

ملخص

إن الفارق الكبير بين رسومات الأطفال الفلسطينيين والهنغاريين هو التجربة الشخصية، ففي رسومات الفلسطينيين يكون حضور الجنود والأطفال أكثر بروزاً، أما في رسومات الهنغاريين، فالأطفال أقل حضوراً ولا علاقة لهم بالقتال أبداً، ذلك لأن الكبار هم الذين يقومون بدور حماة الديار وهم الذين يقاتلون العدو.

أما المشاهد في رسومات الأطفال الفلسطينيين فتشير عادة إلى أحداث محددة، في حين يميل الأطفال الهنغاريون إلى رسم مشاهد معارك عامة لا تحمل رسالة محددة أو وصفاً لحدث معين.

هذه النقاط مهمة عند ملاحظة المرجعية التي يستخدمها الأطفال للتعبير عن مفهوم الحرب والانتفاضة من مخيلتهم. فالحرب بالنسبة لغالبية الأطفال الفلسطينيين الذين يعيشون في المناطق المحتلة، تجربة حرب حقيقية يومية. أما المشاهد المجردة لمعركة بالمدافع وأشكال رجال يهبطون من طائرات الهليكوبتر، فهي شيء غير واقعي بالنسبة للأطفال الفلسطينيين، الذين يمكن أن يكونوا على دراية بإفرازات الحرب السرية مثل الخطف والتحقيق والاعتقال، وهي ما تسبب لهم الرعب يومياً.

إن حقيقة أن الأطفال الفلسطينيين يرسمون الأحداث المألوفة لهم، لكنهم يحاولون إخفاء الجوانب المرعبة منها، يؤكد على أهمية استخدام الرسم كوسيلة علاجية. فهو يسمح لهم بالتعامل مع الحدث بطريقة مقبولة للنفس، يمكن أن تساعد في عملية الشفاء. إن تلك اللوحات تساعد على تنفيس الأطفال عن مشاعرهم التي كانوا يجدون حرجاً في البوح عنها للكبار.

"غاز مسيل للدموع في عيني"

تعد الصورة السابقة أحد الأمثلة على كيفية إبلاغ الطفل للعالم بشعوره عندما يتعرض لهجوم بالقنابل المسيلة للدموع، و"الخربشة" الحمراء على العينين، تشير إلى الاحساس بالاحتراق، أما الألوان الصارخة والزاهية فإنها تشير إلى تناقض الرسالة المرعبة التي تحملها الصورة مع تعبيرات الطفل صاحب اللوحة.

مقارنة بين رسومات الانتفاضة الأولى والثانية

لقد ذكرت الباحثة أنها مهتمة بمعرفة الفروقات في رسومات الأطفال الفلسطينيين في الفترة بين الانتفاضة الأولى والثانية. فدرجة العنف الكبيرة في

انتفاضة الأقصى تختلف عما حدث في الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ والتي كانت ذات سمة شعبية سلمية عبر المظاهرات والاحتجاجات.

أما الآن، ونتيجة للقمع الإسرائيلي الوحشي لأي عمل فلسطيني في المناطق المحتلة، فقد أصبح المزاج العام أكثر تحدياً، وأصبح اهتمام الأطفال لا يتركز فقط على المظاهرات، بل تعداه إلى القتل والموت والشهداء. هناك أيضاً تضمين أكثر للعَلَم الفلسطيني في رسومات الانتفاضة الأولى، فعلى الرغم من أن العلم يحتل مكاناً بارزاً في رسومات بداية الانتفاضة عام ١٩٨٧، وربما يكون التحيز متعمداً لأن العَلَم الفلسطيني كان ملازماً دائماً للاحتجاجات والمظاهرات التي كانت السمة الأبرز للانتفاضة الأولى.

الصور التالية توضح ذلك الفرق:

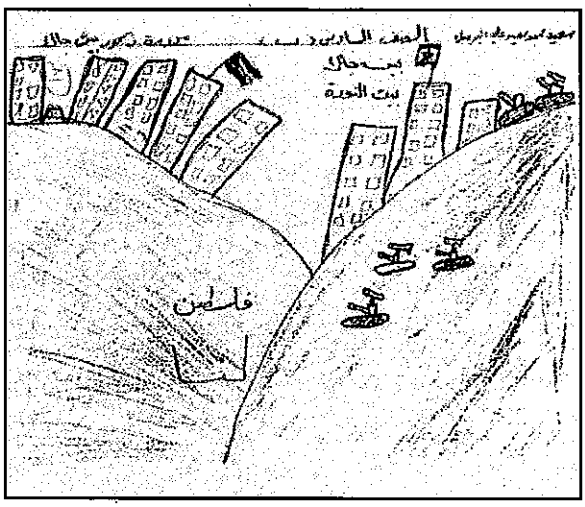

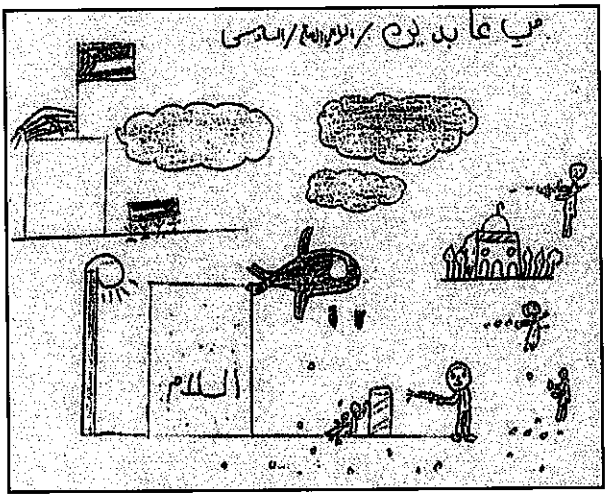

إن المجموعة التالية من الصور تعبّر عن اهتمام الأطفال بوحشـية الجـيش الإسرائيلي وما يمارسه من أعمال عنف:

إن هذه الصورة في الأعلى توضح مشاعر أحد الأطفال في الانتفاضة الأولى تجاه ما يحدث في مخيم الجلزون، إذ تمثل اللوحة مشهد تقييد الإسرائيليين لعيون عدد من الفلسطينيين في المخيم.

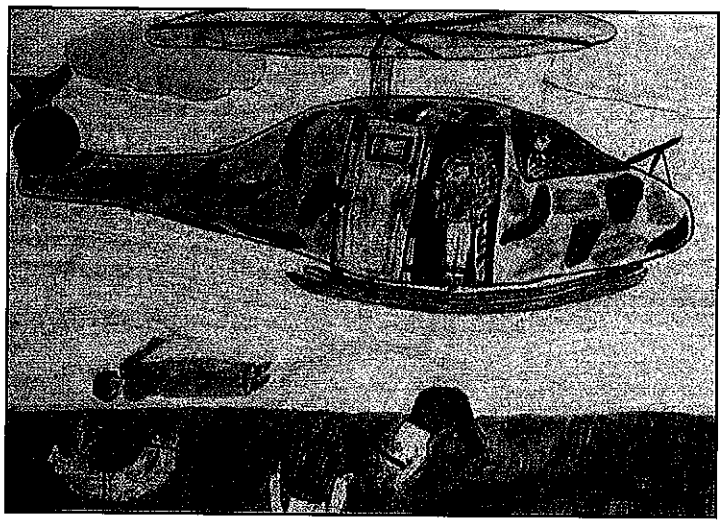

هذه اللوحة من الانتفاضة الأولى تمثل صورة الإسرائيليين وهم يلقون بالفلسطينيين وأعينهم معصوبة من طائرة هليكوبتر.

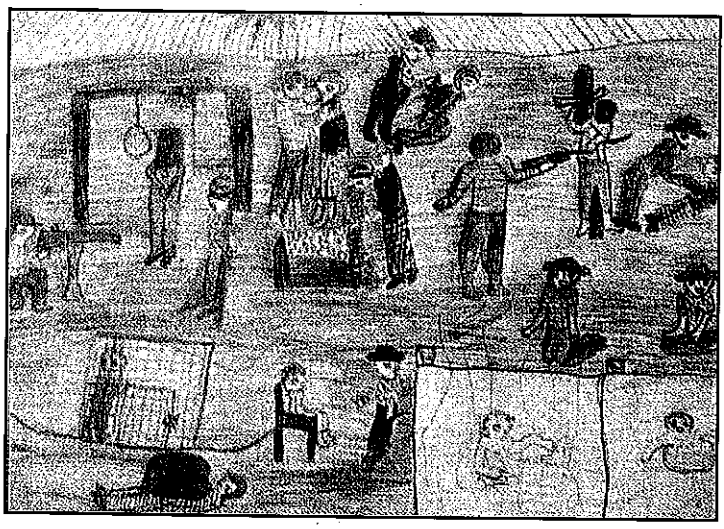

كتبت طفلة فلسطينية عند هذه اللوحة: "بينما كان الرجال يخضعون للتحقيق، كان آخرون يسجنون ويعذبون، فقد تم دفن رجل وهو حي، ووضعت امرأة مولوداً ميتاً".

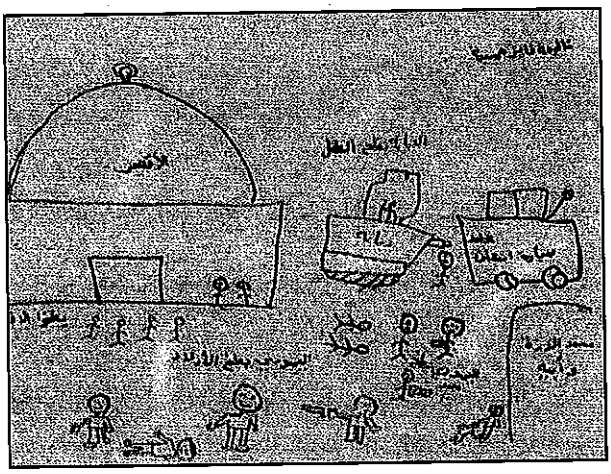

يكتب الطفل الذي رسم الصورة "في الأعلى" "اليهود يطلقون النار على الأطفال، والمسجد الأقصى ومحمد الدرة".

باختصار لا تختلف رسومات الانتفاضة الأولى عن رسومات الانتفاضة الثانية بشكل كبير. صحيح أن هناك بعض التحول في الموضوعات، إلا أن الصور الأساسية ما زالت لجنود إسرائيليين يطلقون النار على المظاهرات، ويتضح أن رسومات الانتفاضة الثانية أصبحت أكثر عنفاً إلى حدٍ ما. وهذا يعود إلى حقيقة أن الجنود الإسرائيليين كانوا يظهرون في صور الانتفاضة الأولى وهم يحملون البنادق دائماً، ونادراً ما كانوا يطلقون النار في تلك الرسومات. أما في الانتفاضة الثانية فهؤلاء الجنود أصبحوا يطلقون النار بشكل كبير، وأصبحت صور الأطفال الجرحى أكثر شيوعاً.

مقارنة بين رسومات الأطفال الهنغاريين والفلسطينيين ونظرتهم لبلادهم وللسلام

إن أحد أهداف هذا البحث هو معرفة كيف ينظر الأطفال إلى مفهوم السلام. ومن الواضح أن هناك فقراً في لوحات أطفال فلسطين عن السلام، لأنه فكرة مجردة بالنسبة لهم، حيث أنهم لم يعرفوا أبداً السلام الحقيقي، وربما يشعرون بالدهشة إذا ما علموا أن الدول الأخرى ليست محتلة كوطنهم. في حين بدا أن أطفال هنغاريا خلطوا في رسوماتهم بين أفكار السلام والوطن. وبإمكاننا أن نرى احتواء هذه الرسومات على الخضرة والأشجار والشمس والمناظر الجميلة. كما أن الأشخاص كانوا بارزين في هذه اللوحات بوجوه مبتسمة وهم يلعبون ويبتسمون.

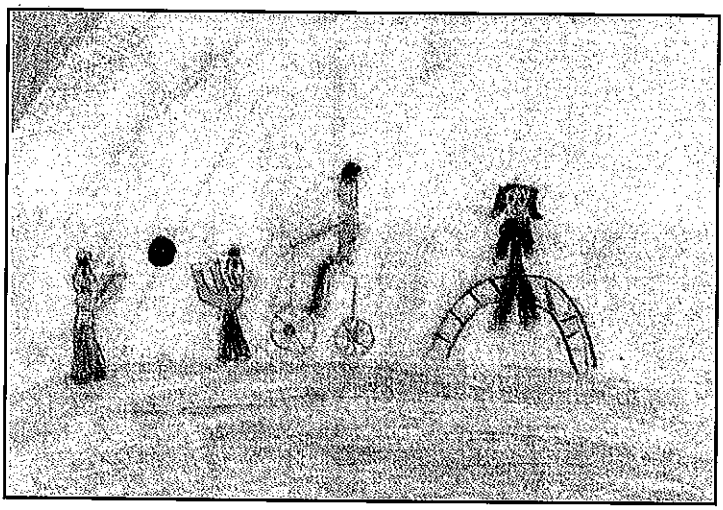

الشكل السابق يمثّل لوحة لطفل هنغاري يعبّر فيها عن وطنه، لاحظ التشابه في الموضوع مع الرسم التالي لطفل هنغاري آخر عن السلام.

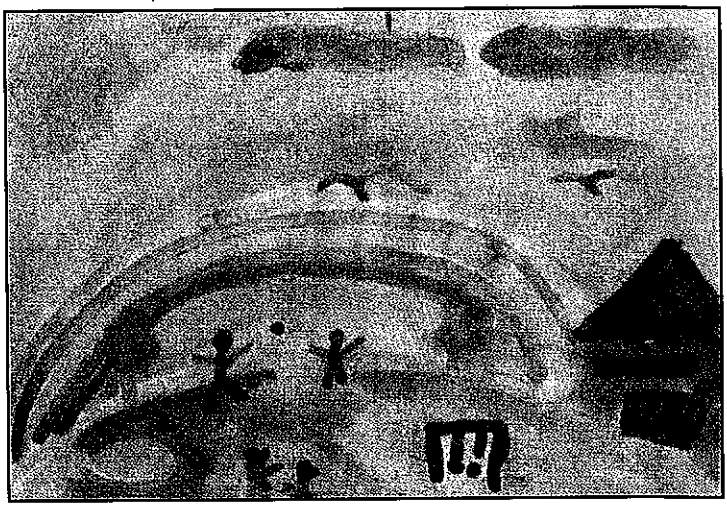

يتضح أن أطفال هنغاريا يتصورون وطنهم مـــن خـــلال المنـــاظر الطبيعيـــة والبنايات الهامة.

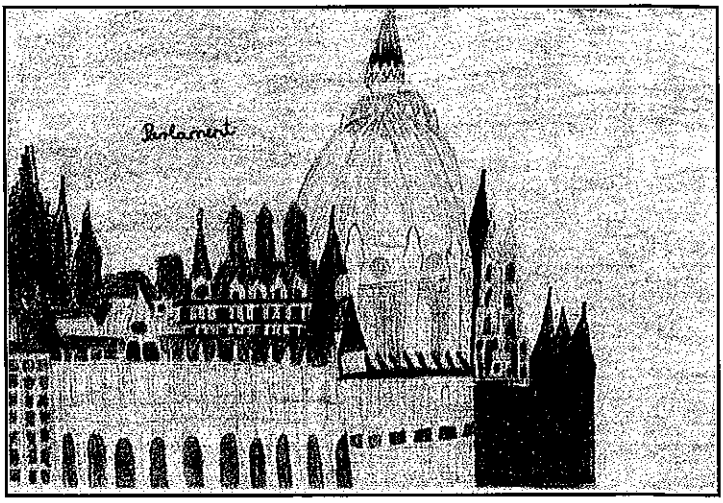

رسمة تمثل البرلمان في بودابست

رسمة تمثل نهر الدانوب وجبال هنغاريا

هذا يعني أن الأطفال الهنغاريين لم يتطرقوا في رسوماتهم إلى التقاليد والموروث الشعبي، على عكس الأطفال الفلسطينيين الذين رسموا كثيراً من النشاطات الثقافية الهامة "حفلات الخطوبة والزواج" وأوجه الحياة التقليدية مثل "موسم قطف الزيتون".

صورة لعرس فلسطيني

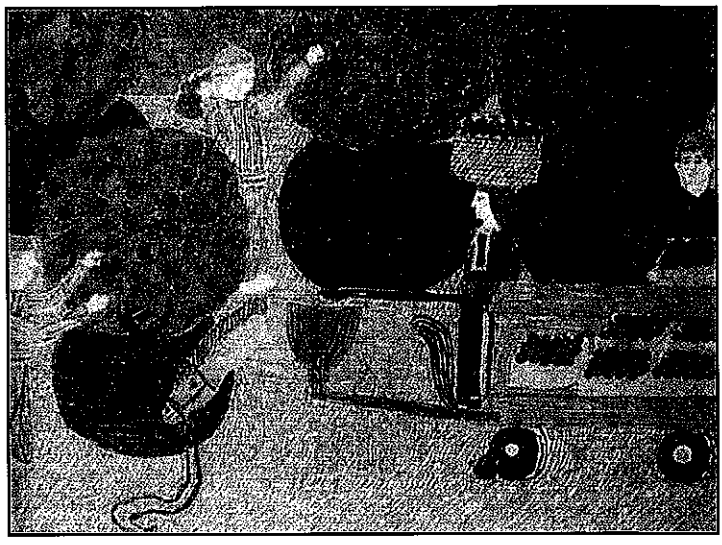

موسم قطف البرتقال

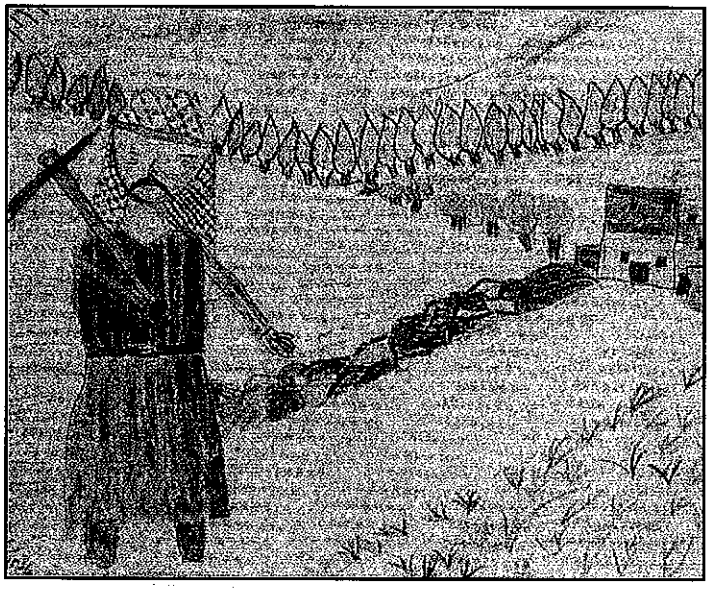

زراعة الأرض

تلك اللوحات تعكس مفهوم الأرض لدى الشعب الفلسطيني، فالذاكرة الفلسطينية تلتصق بحياة الزراعة، والأرض تشكل قيمة كبيرة لديهم.

إن رسومات الأطفال الهنغاريين تحمل مفهوماً محدداً للوطن، على عكس أطفال فلسطين الذين يحملون مفهوماً أكثر تعقيداً لفكرة الوطن. وهذا منطقي لأنه لم يكن لهم وطن لأكثر من خمسين عاماً، ظلوا خلالها يقاتلون ليحصلوا عليه.

*قارنوا بين الأشكال التالية:

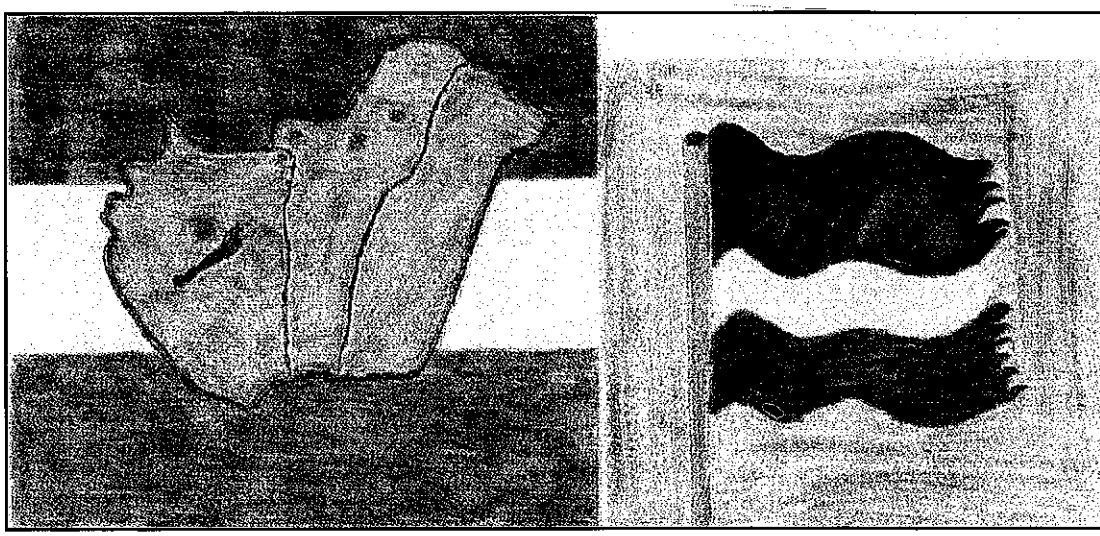

رسومات أطفال هنغاريا

تظهر الصورة التالية تلك الكلمات (شعب فلسطين لا يُهْزَم، وفي أسفل الصورة مشهد شنق كُلّ من أيهود باراك، أريئيل شارون، مادلين أولبرايت).

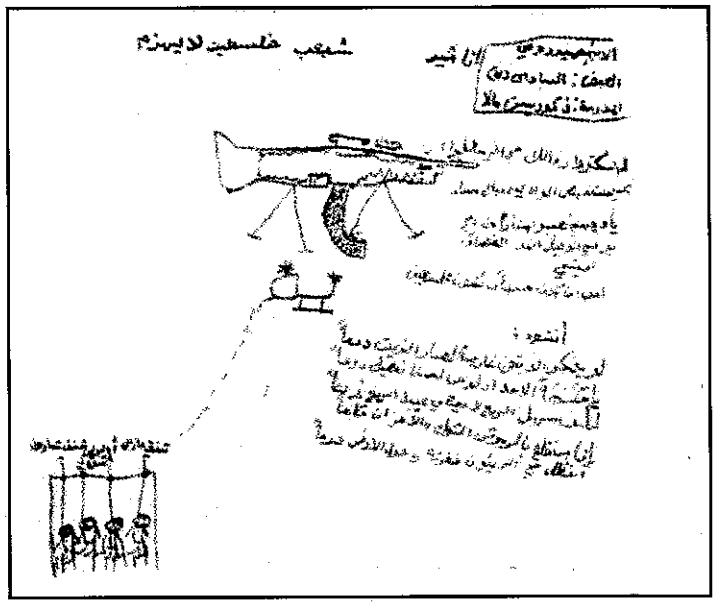

إن غموض فكرة الوطن في الذهنية الفلسطينية جعلت النضال الوطني الفلسطيني مبنياً على كيفية العودة إلى الوطن. وتختلط فكرة الوطن المجردة بالمعنى السياسي بالنسبة للأطفال الفلسطينيين، ولذلك قد يجدون صعوبة في الفصل بينهما. ومع ذلك فإن جمال الأرض أمر يقر به الأطفال الهنغاريون والفلسطينيون عند رسم الوطن.

فيما يتعلق بالسلام، يتضح لنا أن فكرة السلام حازت على رسومات أكثر عند الأطفال الهنغاريين. إلا أن أطفال هنغاريا وفلسطين تماثلت بعض الرموز في لوحاتهم مثل الحمامة وغصن الزيتون.

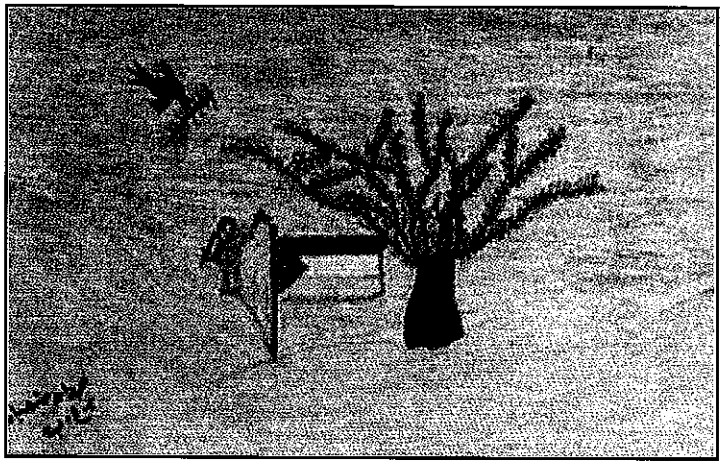

رسمة سلام لطفل فلسطيني

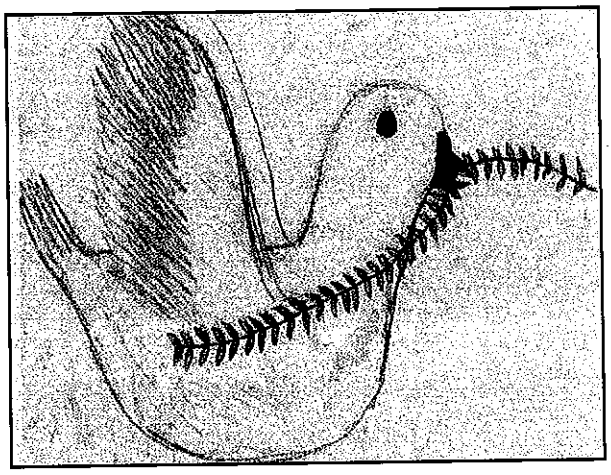

رسمة سلام لطفل هنغاري

قد تبدو رسومات السلام للأطفال الفلسطينيين كما لو أنها تحمل إيحاءاً مثالياً أو سحرياً، فالسلام بالنسبة لهم شيء غريب وخيالي، أما الأطفال الهنغاريون فأكثر واقعية، حيث أن رسوماتهم تعكس المُثل الأوروبية الحديثة التي تعتبر السلام وفاقاً بين الدول، لذلك بدت رسوماتهم متعلقة بالسياسات العصرية والشؤون الحديثة.

وتضمنت معظم الرسومات الخاصة بأطفال هنغاريا، صور أشخاص يتصافحون، في إشارة إلى المصالحة تمهيداً للسلام الحقيقي.

المرافقة لحياتهم، إذ تظهر لوحاتهم لتعبر عن مشاهد اللعب من خلال ألوان صارخة تظهر الطابع الايجابي لمفهوم السلام.

مناقشة و استنتاجات

هدف هذه الدراسة هو استعراض الكتابات الخاصة بالآثار النفسية للانتفاضة على الأطفال الفلسطينيين. وقد ثبت أن آثار هذا العنف السياسي عميقة ومتعددة. حيث تنتشر أعراض اضطرابات مرحلة ما بعد الصدمة بكثرة في مناطق العنف السياسي، وهي أكثر ما تظهر على معظم الأطفال المعرضين للصدمة. كما تتزايد العدوانية بين الأطفال المعرضين لتجارب الاحتلال، وتظهر عليهم أعراض الرهبة والخوف، إن هذه الآثار "الصدمة" تؤثر بصورة أكبر على الأطفال الأصغر سناً.

كما توصلت الدراسة إلى أن أسلوب الحياة العامة لأطفال فلسطين، بما فيه من فقر وبطالة وعوائق تعليمية، كل ذلك يجعل آثار الصدمة مضاعفة وبعيدة المدى.

أما بخصوص الفروقات الجنسية، فإن الذكور والإناث قد شاركوا في الانتفاضة بدرجة متساوية، كما أن آراءهم حول قضيتهم متشابهة. وفي الحقيقة، فإن الإناث كنّ يؤيدن الانتفاضة أكثر من الذكور إلى حدٍ ما.

وعلى الرغم من أن المشكلات النفسية منتشرة في الضفة الغربية وقطاع غزة، إلا أنه من غير الانصاف التركيز عليها فقط. فهناك كثير من الأطفال الذين يتكيفون مع تجارب الصدمة والقلق اليومي ويواصلون النمو بشكل سليم، خاصة إذا تلقوا الرعاية من عائلاتهم ومعلميهم. إضافة إلى ذلك، يمكن للالتزام الفكري أن يلعب دوراً كبيراً في تغيير خطوط مرجعية الصدمة، ويمكن أن يحمي الطفل الذي يؤمن بأنه يقاتل من أجل شيء في غاية الأهمية. كما يساعد اتحاد

الناس ضد عدو مشترك في خلق التكاتف الاجتماعي، وهذا الأمر تتميز به الشعوب التي تتعرض للعقوبات الجماعية بشكل عام، والشعب الفلسطيني بشكل خاص يتميز بروح التكافل الاجتماعي.

من جانب آخر، اعتبر بعض الباحثين أن الانتفاضة تركت أثراً سلبياً على النمو الأخلاقي، بينما قال آخرون أنها تزيد من التعقل، أما الباحثة "شارلوت ستانفورث" فإنها تعتقد أن الأثر النفسي للانتفاضة يعتمد على نوع التجربة التي مرّ بها الطفل، والتي يجب ربطها بعوامل أخرى في محيط الطفل مثل وجود رعاية أسرية نموذجية.

إن الرسومات تمثل دوراً هاماً في حياة الأطفال، بل في حياة الناس جميعاً، إذ يوجد هناك استعداد فطري في النفس البشرية "للخربشة"، التي تكتسب أهمية خاصة مع التطور العمري. وفي المرحلة العمرية المبكرة من حياة الإنسان "الطفولة"، تكتسب الرسومات البسيطة "الخربشة" أهمية كبرى، لأنها وسيلة رئيسية للاتصال بالنسبة للأطفال، إذ قد تأخذ هذه الرسومات شكلاً رمزياً أو تصويرياً لسهولتها بالمقارنة مع اللغة الكلامية، ذلك أن الطفل قد لا يملك المهارات الكلامية الضرورية للتعبير أو أنه ببساطة لا يستطيع استيعاب معنى تجربته بالكامل ليعبر عنها بالكلمات، من هنا يأتي استخدام الرسم لمساعدة الطفل في العثور على القضايا التي تشغل اهتمامه.

إن الأطفال غالباً ما يرسمون بشكل تلقائي لتقوية تجاربهم الشخصية، وهذه طريقتهم في استيعاب الأحداث التي لا يفهمونها بشكلٍ كامل. وبناءاً على ذلك، فقد اقترحت الباحثة استخدام الرسم كوسيلة مفيدة لاكتشاف القلق والاهتمامات الباطنية للطفل. وهذا الأسلوب يستخدم مع ضحايا الصدمة والإساءة الجنسية.

من خلال هذه الدراسة، كانت الباحثة تسعى لمعرفة ما إذا كان الطفل الفلسطيني النموذجي على استعداد للافصاح عن عالمه الداخلي من خلال الرسم، إذ تقول الباحثة (لقد كشفت المقارنة بين رسومات الأطفال الفلسطينيين

والهنغاريين عن فروقات كبيرة بين أفكار المجموعتين، عن الحرب التي كان لها معنى مختلف لكل منهما. فالأطفال الهنغاريون اهتموا بالحروب الكبيرة التي تخوضها دولتان، أما الأطفال الفلسطينيون فقد ركزوا على جوانب الحرب البرية ضد الاحتلال. لكن الاختلاف الكبير، تمثل بحضور الأسلحة و استهداف الأطفال في الرسومات الفلسطينية. لقد افترض الأطفال الهنغاريون أن الحرب "لعبة" الكبار، بينما ركز الأطفال الفلسطينيون على مشاركتهم الشخصية فيها).

تخلص الدراسة إلى استنتاج مفاده أنه من الممكن رؤية الفروقات بين رسومات أطفال يعيشون في أجواء سلمية، وأولئك الذين يعيشون في بيئة عنف سياسي، إذ يتضح أن الأطفال الفلسطينيين يرسمون التجارب المألوفة لهم، وهم يحكون قصصهم من خلال الصور التي تُبين شكل الحياة اليومية للشعب الفلسطيني.

لقد كان أحد أهداف هذه الدراسة هو استكشاف إمكانية استخدام الرسم كوسيلة علاجية. وقد توصلت الدراسة إلى أن الرسم قد يكون مفيداً للأطفال الفلسطينيين لعدم توفر الامكانيات حالياً لإجراء علاج شامل للذين يعانون من مشكلات عقلية. فإذا تم إعطاء الأطفال فرصة للرسم، فسوف يفرغون مشكلات الصدمة مما يحول دون ظهور الأعراض النفسية المتعلقة بكبت المشاعر.

إن نشاط الرسم يعطي الأطفال فرصة للتجمع، ولعمل شيء خلاق وملموس، بدلاً من النشاط الذي يمارسونه في الشوارع عندما يتظاهرون ضد الاحتلال، وهناك فرص متعددة لتطوير مهارات التعاون والشعور بالاقتدار والفخر عند الأطفال الذين يتم تشجيعهم على رسم ما يشعرون به. كما أن ذلك يساعد على منع تراكم القلق الناجم عن العيش في مجتمع يعاني من المشكلات السياسية والاجتماعية.

إن المتعة التي يحصل عليها الطفل من الرسم والعمل الفني عموماً تضفي تحسناً على حياة الطفل الفلسطيني الذي كاد يفقد الأمل والطموح، خاصة في ظل

والهنغاريين عن فروقات كبيرة بين أفكار المجموعتين، عن الحرب التي كان لها معنى مختلف لكل منهما. فالأطفال الهنغاريون اهتموا بالحروب الكبيرة التي تخوضها دولتان، أما الأطفال الفلسطينيون فقد ركزوا على جوانب الحرب البرية ضد الاحتلال. لكن الاختلاف الكبير، تمثل بحضور الأسلحة و استهداف الأطفال في الرسومات الفلسطينية. لقد افترض الأطفال الهنغاريون أن الحرب "لعبة" الكبار، بينما ركز الأطفال الفلسطينيون على مشاركتهم الشخصية فيها).

تخلص الدراسة إلى استنتاج مفاده أنه من الممكن رؤية الفروقات بين رسومات أطفال يعيشون في أجواء سلمية، وأولئك الذين يعيشون في بيئة عنف سياسي، إذ يتضح أن الأطفال الفلسطينيين يرسمون التجارب المألوفة لهم، وهم يحكون قصصهم من خلال الصور التي تُبين شكل الحياة اليومية للشعب الفلسطيني.

لقد كان أحد أهداف هذه الدراسة هو استكشاف إمكانية استخدام الرسم كوسيلة علاجية. وقد توصلت الدراسة إلى أن الرسم قد يكون مفيداً للأطفال الفلسطينيين لعدم توفر الامكانيات حالياً لإجراء علاج شامل للذين يعانون من مشكلات عقلية. فإذا تم إعطاء الأطفال فرصة للرسم، فسوف يفرغون مشكلات الصدمة مما يحول دون ظهور الأعراض النفسية المتعلقة بكبت المشاعر.

إن نشاط الرسم يعطي الأطفال فرصة للتجمع، ولعمل شيء خلاق وملموس، بدلاً من النشاط الذي يمارسونه في الشوارع عندما يتظاهرون ضد الاحتلال، وهناك فرص متعددة لتطوير مهارات التعاون والشعور بالاقتدار والفخر عند الأطفال الذين يتم تشجيعهم على رسم ما يشعرون به. كما أن ذلك يساعد على منع تراكم القلق الناجم عن العيش في مجتمع يعاني من المشكلات السياسية والاجتماعية.

إن المتعة التي يحصل عليها الطفل من الرسم والعمل الفني عموماً تضفي تحسناً على حياة الطفل الفلسطيني الذي كاد يفقد الأمل والطموح، خاصة في ظل

الناس ضد عدو مشترك في خلق التكاتف الاجتماعي، وهذا الأمر تتميز به الشعوب التي تتعرض للعقوبات الجماعية بشكل عام، والشعب الفلسطيني بشكل خاص يتميز بروح التكافل الاجتماعي.

من جانب آخر، اعتبر بعض الباحثين أن الانتفاضة تركت أثراً سلبياً على النمو الأخلاقي، بينما قال آخرون أنها تزيد من التعقل، أما الباحثة "شارلوت ستانفورث" فإنها تعتقد أن الأثر النفسي للانتفاضة يعتمد على نوع التجربة التي مرّ بها الطفل، والتي يجب ربطها بعوامل أخرى في محيط الطفل مثل وجود رعاية أسرية نموذجية.

إن الرسومات تمثل دوراً هاماً في حياة الأطفال، بل في حياة الناس جميعاً، إذ يوجد هناك استعداد فطري في النفس البشرية "للخربشة"، التي تكتسب أهمية خاصة مع التطور العمري. وفي المرحلة العمرية المبكرة من حياة الإنسان "الطفولة"، تكتسب الرسومات البسيطة "الخربشة" أهمية كبرى، لأنها وسيلة رئيسية للاتصال بالنسبة للأطفال، إذ قد تأخذ هذه الرسومات شكلاً رمزياً أو تصويرياً لسهولتها بالمقارنة مع اللغة الكلامية، ذلك أن الطفل قد لا يملك المهارات الكلامية الضرورية للتعبير أو أنه ببساطة لا يستطيع استيعاب معنى تجربته بالكامل ليعبر عنها بالكلمات، من هنا يأتي استخدام الرسم لمساعدة الطفل في العثور على القضايا التي تشغل اهتمامه.

إن الأطفال غالباً ما يرسمون بشكل تلقائي لتقوية تجاربهم الشخصية، وهذه طريقتهم في استيعاب الأحداث التي لا يفهمونها بشكلٍ كامل. وبناءاً على ذلك، فقد اقترحت الباحثة استخدام الرسم كوسيلة مفيدة لاكتشاف القلق والاهتمامات الباطنية للطفل. وهذا الأسلوب يستخدم مع ضحايا الصدمة والإساءة الجنسية.

من خلال هذه الدراسة، كانت الباحثة تسعى لمعرفة ما إذا كان الطفل الفلسطيني النموذجي على استعداد للافصاح عن عالمه الداخلي من خلال الرسم، إذ تقول الباحثة (لقد كشفت المقارنة بين رسومات الأطفال الفلسطينيين

الجدول التالي يوضح الفرق في الموضوعات التي تشكل محور اهتمام الأطفال الفلسطينيين والهنغاريين من خلال التباين في صور رسومات الحرب التي قدموها

صور رسومات الحرب	الفلسطينيون	الهنغاريون
دبابات	%١٣	%٦٥
طائرات مقاتلة	%٣	%٤٣
طائرات عمودية	%٢١	%١٤
سيارات جيب عسكرية	%٢٢	%٧
الشمس	%٩	%١٦
قذائف	%٦	%٢٤
جنود	%٥٢	%٣٦
أشخاص قتلى وجرحى	%٢٥	%٥٠
أشخاص مبتسمون	%٢٢	%٢٥
أشخاص غير مبتسمين	%١٧	%٩٢
أشخاص غير معروفة ردة فعلهم	%٤٤	%٠
علم الدولة المعادية	%١٠	%١١
علم الوطن	%٥٢	%١١

إغلاق المدارس واستمرار نظام حظر التجول، لذلك لابد من الاستفادة من العقل الإبداعي للطفل عبر برامج شعبية واسعة تتلاءم مع التقاليد الثقافية السائدة، ومن بينها "ورشات الرسم"، التي تعتبر أسلوباً مناسباً للمجتمعات العربية التي لا تتعاطف مع المرض العقلي أو النفسي. من هنا يعتبر الرسم أسلوباً جيداً يؤدي إلى تفريغ الكبت النفسي الذي يعيشه الأطفال أو الكبار دون أن يؤدي ذلك إلى نبذهم ونبذ عائلاتهم.

إن الأطفال الفلسطينيين الذين يعيشون حالياً في الضفة الغربية وقطاع غزة، هم جيل مُهَدّد لحرمانهم من حقهم في التعليم وانكار حقوقهم الإنسانية ومصادرة حقهم في الطفولة بكل معانيها المفقودة "الحرية، اللهو، البراءة". وعلى الرغم من ذلك، يبدو أن الشيء المدهش هو أن الأطفال بعد كل ذلك، لا زالوا يتمتعون بالحماس والمعنويات التي تتحدى كل محاولات تحطيمها على أيدي الجيش الإسرائيلي، مما يجعل المعركة تبدو مثل معركة "داوود وجالوت". كما لا تزال فكرة السلام موجودة في أذهان الأطفال الفلسطينيين، رغم أنها قد تكون خيالية وغير واقعية، من هنا يجب الحفاظ على الأمل الذي يشع من عيون الأطفال عبر الحفاظ على التراث الفلسطيني الذي يحسن من المزاج العام، خاصة أن شعور الإنسان بالتقاليد يحافظ على المعنويات، في حين أن فقدان الناس لتقاليدهم يعني فقدانهم لجزء من ذاتهم. من هنا يمكن ترويج الموروث الشعبي والحكايات التقليدية من خلال الرسم، فإذا تم حرمان الأطفال الفلسطينيين من أمل رؤية السلام الحقيقي في المستقبل القريب، فليس أقل من جعلهم يرسمونه لنعطيهم فرصة لتخيل الحرية والعدالة والمستقبل الذي يسعون إليه.

الجدول التالي يوضح الفروقات في رؤية الأطفال الفلسطينيين بين الانتفاضتين من خلال رسوماتهم

الصور الموجودة في الرسومات	الانتفاضة الأولى	الانتفاضة الثانية
احتجاجات ومظاهرات	%١٧	%١٥
قتل وإصابات	%٣٨	%٣٦
الإشارة إلى الشهداء	%١٣	%٢١
العلم الفلسطيني	%٦٧	%٣٦
جنود إسرائيليون يطلقون النار	%٨	%٣٦
جنود إسرائيليون مسلحون	%٧٩	%٣٨

الجدول التالي يوضح الأشكال الظاهرة في صور الأطفال الهنغاريين عن وطنهم

الشكل	الأطفال الهنغاريين
خضرة وأشجار	%٣٧
الشمس	%٣٢
الأشخاص	%٣٢
لعب ومرح	%١٣
معالم بنايات مشهورة	%١٦
بيوت	%٢٩
خارطة البلد	%١٦
العلم الهنغاري	%٢١
إشارات سياسية	%١١

الجدول التالي يوضح الأشكال الظـــاهرة فـــي صـــور الأطفـــال الفلسطينيين عن وطنهم

الشكل	الأطفال الفلسطينيين
خطوبة وزواج	%٢٩
فلاحة الأرض والحصاد	%٤٢
أعلام وخرائط	%٨
الشمس	%٢١
الأشخاص	%٤٢
البيوت	%٢٥
الخضرة والأشجار	%٢٩

المراجع باللغة الإنجليزية

REFERENCES.

Adjucovic, M & Adjukovic, D. Psychological well-being of refugee children. Child Abuse and Neglect. 1993, 17 (6) pgs; 843-854.

Allen, (1978). Cited in Burgess, A.W & Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs; 161-168.

Baker, A.M. Gender, Urban-Rural-Camp, and Regional differences among self-esteem scores of Palestinian children. The Journal of Psychology, 1992, 126 (2) pgs; 207-209.

Bettelheim, B. (1943). Individual and Mass behaviour in extreme situations. Journal of Abnormal and Social Psychology, 38, 417-452.

Boullata, K. (1990). Faithful Witnesses: Palestinian children recreate their world. Olive Branch Press. New York.

Bowlby, J. (1980). Attachment and loss. III: Loss. New York: Basic Books.

Broeder, (1985). Cited in Burgess, A.W & Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs; 161-168.

Bronfenbrenner, U. (1986). Ecology of family as a context for human development: Research perspectives. Developmental psychology, 22, 723-742.

Bruner, J.S, Oliver, R.R & Greenfield, P.M. (1966) Studies in Cognitive Growth. New York, Wiley.

Buck, J.N (1948). Cited in Graphic techniques with children and adolescents. Hammer, E.F. Chapter 12. In Projective Techniques for Adolescents and Children. (1986). A.I. Rabin (Eds). New York, Springer.

Burgess, A,W (1988, 1991, 1993). Cited in Burgess, A.W & Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs; 161-168.

Burgess, A.W, Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs;161-168.

Burns, R. (1982). Cited in Graphic techniques with children and adolescents. Hammer, E.F. Chapter 12. In Projective Techniques with Children and Adolescents. Hammer, E.F. Chapter 12. In Projective techniques for adolescents and children. (1986). A.I. Rabin (Eds). New York, Springer.

Chiementi. (1989). Cited in Moughrabi, F. (2001). A nation at risk: The impact of violence on Palestinian children. www.gcmhp.net/

Cohen and Doten. (1976). Cited in Thabet, A.M & Vostanis, P. Post-traumatic stress reactions in children of war. Journal of Child Psychology, Psychiatry and Allied Disciplines. 1999, 40 (3) pgs; 385-391.

Coles, R. (1987). The political life of children. Boston: Houghton Mifflin.

Cotte, S., Roux, G. and Aureille, M.A. Utilisation du dessin comme test psychologique chez les enfants abnormaux. Maupetit, Marseille 1946.

Davidson, L.M & Baum, A. (1990). Posttraumatic stress in children following natural and human-made trauma. In M. Lewis and S.M Miller (Eds.), Handbook of Developmental Psychopathology. New York: Plenum, 251-259.

DCI/PS, (2001). A generation denied. Conditions of detention: Psychosocial effects on children. www.dci-pal.org

Elder. (1979). Cited in Davidson, L.M & Baum, A. Posttraumatic stress in children following natural and human-made trauma. In M. Lewis and S.M Miller (Eds.), Handbook of Developmental Psychopathology. New York: Plenum, 251-259.

El Sarraj, E. (1993). Peace and the children of the stone. Unpublished study, Gaza: Gaza Community Mental Heath Programme.

El-Sarraj, E. (1996). El-Sarraj, E. (1996) Palestinian children and violence. www.gcmhp.net/eyad/belfast.htm

El-Sarraj, E. (2001). The Guardian. (2001, Friday, April 13th). Brittain, V. Trouble in store for war-scarred sons of Gaza. Children of the strip are addicted to violence, doctor warns. Special report: Israel and the Middle East. www.gcmhp.net/

Erikson, K. (1976). Cited in Garbarino, J, Kostelny, K and Dubrow, N. (1991). What children can tell us about living in danger. American Psychologist, 46 (4) pgs;376-383.

FAFO study, (1993). www.palnet.com/~npasec/research/fafo.html

Falk, J.D. Understanding children's art: An analysis of the literature. Journal of Personality Assessment, 1981, 45 (5) pgs; 465-472.

Fields, R.M. (1977). Cited in Stressors of childhood (chapter 2). In N Garmezy & M. Rutter (Eds). (1983). Stress, coping and development in children. (pgs; 43-84). New York: McGraw Hill.

Fields. (1987). Cited in Garbarino, J, Kostelny, K and Dubrow, N. what can children tell us about living in danger. American Psychologist. 1991, 46 (4) pgs; 376-383.

Figley (1983). Cited in Thabet, A.M & Vostanis, P. Post-traumatic stress reactions in children of war. Journal of Child Psychology, Psychiatry and Allied Disciplines. 1999, 40 (3) pgs; 385-391.

Freud, A & Burlingham, D.T. (1943). War and Children. London: Medical War Books.

Fox,T.J & Thomas, G.V. Children's drawings of an anxiety-eliciting topic: Effects on the size of the drawing. British Journal of Clinical Psychology, 1990, 29 (1) pgs; 71-81.

Garbarino, J, Kostelny, K and Dubrow, N. what can children tell us about living in danger. American Psychologist. 1991, 46 (4) pgs; 376-383.

Gardiner, H.W. A cross-cultural comparison of hostility in children's drawings. The Journal of Social Psychology, 1969, 79 pgs; 261-263.

Garmezy, N. (1983). Stressors of childhood. In N Garmezy & M. Rutter (Eds). (1983). Stress, coping and development in children. (pgs; 43-84). New York: McGraw Hill.

Garmenzy, N and Rutter, M. (1983). Cited in Community environments, war and disaster, chapter 4 in Goodyear, I.M. (1990). Life Experiences, Development and Childhood Psychopathology. Chichester: Wiley.

GCMHP. (2000). First GCMHP study on the psychological effects of Al-Aqsa Intifada: Significant increases in mental disorders and symptoms of PTSD among children and women (2000). www.gcmhp.net

GCMHP. (2002). Special report: Intifada update (2002). www.gcmhp.net

Goodenough, (1933). Van Krevelin, D. Children's drawings as a psychodiagnostic test. Acta Paedopsychiatrica: International Journal of Child and Adolescent Psychiatry, 1974, 40 (3) pgs; 110-121.

Gordon and wraith (1993). Cited in Moughrabi, F. (2001).A nation at risk: The impact of violence on Palestinian children. www.gcmhp.net/

Gregory, R.L. 1998. The Oxford Companion to the MIND: The classic guide to the mind and its mysteries. Oxford University Press. Great Britain.

Hammer, E.F. Chapter 12. Graphic techniques with children and adolescents in Rubin, A.I. 1986. Projective Techniques for Adolescents and Children. Springer, New York.

Hawadi, S. (1990). Brief notes on: The History of Palestine (compiled from various sources). The Arab Palestine association of Canada.

Hildreth, G. War themes in children's drawings. Childhood Education, 1943, 20 pgs;121-127.

Hurrelman & Losel, (1996). Cited in Garbarino, J, Kostelny, K and Dubrow, N. (1991). What children can tell us about living in danger. American Psychologist, 46 (4) pgs;376-383.

Jagodic, G.K. Is was a good or bad thing? The attitudes of Croatian, Israeli and Palestinian children towards war. International Journal of Psychology, 2000, 35 (6) pgs; 241-257.

Joiner, T.E, Schmidt, K.L, Barnett, J. Size, detail and line heaviness in children's drawings as correlates of emotional distress: (more) negative evidence. Journal of Personality Assessment, 1996, 67 (1) pgs; 127-141.

Kaplan, H.I & Sadock, B.J. (1997). Synopsis of psychiatry. Behavioral Sciences/Clinical Psychiatry. 8th Ed. Lippincott, Williams & Wilkins.

Kelley, (1985). Cited in Burgess, A.W & Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs; 161-168.

Kinzie. (1981). Cited in Community environments, war and disaster, chapter 4 in Goodyear, I.M. (1990). Life Experiences, Development and Childhood Psychopathology. Chichester: Wiley.

Koppitz. (1968). Cited in Burgess, A.W & Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs; 161-168.

Kostelny, K & Garbarino, J. Coping with the consequences of living in danger: The case of Palestinian children and youth. International Journal of Behavioural Development, 1994, 17 (4) pgs; 595-611.

Kramer, E and Ulman, E (1982). Therapy 8. In The Handbook of School Psychology. (1982). Reynolds, C.R & Gatkin, T.B. Wiley.

Luquet, G.H. (1927). Cited in Piaget, J & Inhelder, B. (1969). The Semiotic or Symbolic function. Chapter 3 in The Psychology of the Child. London: Routledge and Kegan Paul.

Maccoby. (1983). Cited in Davidson, L.M & Baum, A. Posttraumatic stress in children following natural and human-made trauma. In M. Lewis and S.M Miller (Eds:), Handbook of Developmental Psychopathology. New York: Plenum, 251-259.

Macksoud and Aber. (1996). Cited in Moughrabi, F. (2001).A nation at risk: The impact of violence on Palestinian children. www.gcmhp.net/

Magwaza, A.S, Killian, B.J , Petersen, I & Pillay, Y. The effects of chronic violence on preschool children living in South African townships. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (6) pgs; 795-803.

Martin, W.E. Children's drawings. The Journal of Genetic Psychology, 1955, 86 pgs;327-338.

Moscovitz. (1983). Cited in Community environments, war and disaster, chapter 4 in Goodyear, I.M. (1990). Life Experiences, Development and Childhood Psychopathology. Chichester: Wiley.

Moughrabi, F. (2001). A nation at risk: The impact of violence on Palestinian children. www.gcmhp.net/ Oneworld.org. (2001). ww.oneworld.org/is/body_pages/fund_body/pages/palappeal01.html

Palestine monitor. (2001). www.palestinemonitor.org/factsheet/children.htm

Piaget and Inhelder. (1958). Cited in Burgess, A.W & Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs; 161-168.

Piaget, J & Inhelder, B. (1969). The semiotic or symbolic function. Chapter 3 in The Psychology of the Child. London: Routledge and Kegan Paul.

Pinto, G, Bombi, A, S & Cordioli, A. Drawing as a tool for cross-cultural investigation of children's friendships. International Journal of Behavioural Development. 1997, 20 (3) pgs;453-469.

Punamaki, R. 91996). Cited in Jagodic, G.K. Is was a good or bad thing? The attitudes of Croatian, Israeli and Palestinian children towards war. International Journal of Psychology, 2000, 35 (6) pgs; 241-257.

Punamaki, R & Puhakka, T. Determinants and effectiveness of children's coping with political violence. International Journal of Behavioural Development, (1997), 21 (2), 349-370.

Punamaki, R., Qouta, D. & El-Sarraj, E. Resiliency factors predicting psychological adjustment after political violence among Palestinian children. International Journal of Behavioural Development. (2000), 25 (3), 256-267.

Punamaki, R. Children under conflict: The attitudes and emotional life of Israeli and Palestinian children. Tampere Research Institute, Research Report no. 32. 1987.

Punamaki, R. Historical-political and individualistic determinants of coping models and fears among Palestinian children. International Journal of Psychology 1988, 23 (6) pgs; 721-739.

Punamaki, R. The role ofdreams in protecting psychological well-being in traumatic conditions. International Journal of Behavioural Development. 1998, 22 (3) pgs; 559-558.

Pynoos and Eth. (1985). Cited in Davidson, L.M & Baum, A. Posttraumatic stress in children following natural and human-made trauma. In M. Lewis and S.M Miller (Eds.), Handbook of Developmental Psychopathology. New York: Plenum, 251-259.

Qouta, S, Punamaki, R & El Sarraj, E. The relations between traumatic experiences, activity and cognitive and emotional responses among Palestinian children. International Journal of Psychology, 1995, 30 (3) pgs; 289-304.

Qouta, S. (2000). Trauma, violence and mental health. The Palestinian experience. Ph.D thesis Vrije university- Amsterdam.

Qouta, S, El Sarraj, E & Punamaki, R. Mental flexibility as resiliency factor among children exposed to political violence. International Journal of Psychology, 2000, 36 (1).

Qouta, S, El Sarraj, E & Punamaki, R. Resiliency factors predicting psychological adjustment after political violence among Palestinian children. International Journal of Behavioural Development. 2001, 25 (3) pgs; 256-267.

Rieck, M. The psychological state of Holocaust survivors' offspring: An epidemiologic and psychodiagnostic study. International Journal of Behavioral Development, 1994, 17 (4) pgs;649-667.

Rutter. (1966). Cited in Davidson, L.M & Baum, A. Posttraumatic stress in children following natural and human-made trauma. In M. Lewis and S.M Miller (Eds.), Handbook of Developmental Psychopathology. New York: Plenum, 251-259.

Sack, W.H. Twelve-year follow-up of Khmer youths who suffered massive was trauma as children. Journal of the America Academy of Child and Adolescent Psychiatry. September, 1999.

Sameroff, A.J. & Chandler, M.J. (1975); Reproductive risk and the continuum of care-taking casualty. In F.D. Horowitz, M. Hetherington, S. Scarr-Salapatek, & G. Siegal (Eds.), Review of child development research, Vol.4. Chicago: University of Chicago Press.

Sameroff, A.J. (1993); Models of development and developmental risk. In C.H. Zeanah, Jr. (Ed), Handbook of Infant Mental Health. New York: Guilford, 3-13.

Saudi Gazatte. (2001, April 28th). Tarbush, S. Dealing with Palestine's traumatized people.

Sayigh. (1989, 1991). Cited in Moughrabi, F. (2001). A nation at risk: The impact of violence on Palestinian children. www.gcmhp.net/

Smith, H.P & Appelfeld, S.W. children's paintings and the projective expression of personality: An experimental investigation. The Journal of Genetic Psychology, 1965, 107 pgs;289-293.

Stember, (1980). Cited in Burgess, A.W & Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs; 161-168.

Tallandini, M & Valentini, P. Symbolic prototypes in children's drawings of schools. The Journal of Genetic Psychology, 1991, 152 (2) pgs; 179-190.

Thabet, A.M & Vostanis, P. Post-traumatic stress reactions in children of war. Journal of Child Psychology, Psychiatry and Allied Disciplines. 1999, 40 (3) pgs; 385-391.

The Guardian. (2001, Friday, April 13th). Brittain, V. Trouble in store for war-scarred sons of Gaza. Children of the strip are addicted to violence, doctor warns. Special report: Israel and the Middle East. www.gcmhp.net/

The Psycho-social counseling centre for women: Bethlehem. (2000). They plant the destruction while we plant the hope. This way Palestinian children talk to the world. Unpublished compilation of drawings.

Thomas, G.V, Chaigne, E & Fox, T.J. Children's drawings of topics differing in significance: Effects on the size of drawing. British Journal of Developmental Psychology, 1989, 7 (4) pgs; 321-333.

TIME magazine. (2002, March 25th). A land divided. Pgs; 30-31.

Toner, I.J. Children and political violence. International Journal of Behavioural Development, 1994, 17 (4) pgs; 593-594.

Traube, T. La valeur diagnostique des dessins des enfants difficiles. Arch. Psychol. 26, 285-309 (1937).

Ulman, E (1975b). Cited in The Handbook of School Psychology. (1982). Reynolds, C.R & Gatkin, T.B. Wiley.

UNICEF. (1996). Cited at www.palnet .com/~npasec/research/poverty.html

UNICEF. (1997). Cited in Moughrabi, F. (2001). A nation at risk: The impact of violence on Palestinian children. www.gcmhp.net/

Van Krevelin, D. Children's drawings as a psychodiagnostic test. Acta Paedopsychiatrica: International journal of child and adolescent psychiatry, 1974, 40 (3) pgs; 110-121.

Webb, N.B. (1991). Play therapy with children in crisis: A casebook for practitioners. The Guilford press. New York.

WHO: 1996, Mental health of refugees. Published by the World Health Organization in collaboration with the office on the United Nations commissioner for refugees.

Wilson and Ratekin, (1990). Cited in Burgess, A.W & Hartman, C.R. Children's drawings. Child Abuse and Neglect, 1993, 17 (1) pgs; 161-168.

Winnicott. (1971). Cited in Webb, N.B. (1991). Play therapy with children in crisis: A casebook for practitioners. The Guilford press. New York.

A generation denied. Conditions of detention: Psychosocial effects on children (2001).

www.dci-pal.org

Children in region struggle with trauma (2000).
www.foxnews.com/world/israel/1027_children.sml

A Palestinian child's pastime (2001). www.msnbc.com/news/484045.asp

Ziv, Krulanski and Shulman. (1974). Cited in Jagodic, G.K. Is was a good or bad thing? The attitudes of Croatian, Israeli and Palestinian children towards war. International Journal of Psychology, 2000, 35 (6) pgs; 241-257.

Ziv and Israeli. (1973). Cited in Thabet, A.M & Vostanis, P. Post-traumatic stress reactions in children of war. Journal of Child Psychology, Psychiatry and Allied Disciplines. 1999, 40 (3) pgs; 385-391.

المحتويات

الصفحة

الفصل الأول :

الأطفال الفلسطينيون ضحايا العنف ٥

الفصل الثاني :

عمر الطفل وارتباطه بالصدمة ٢١

الفصل الثالث :

فروقات مؤتمرات العنف على الأطفال ٣٣

الفصل الرابع :

رسومات الأطفال في فلسطين ٤٩

الفصل الخامس :

رسوم الانتفاضة الأولى والثانية

ورسومات الأطفال الهنغاريين ٦٥

المراجع باللغة الانجليزية ١٠٣